رواية

أبواب

اللهُ خَلَقْني مُدْخلاً واحِد لأبوَابِ مُتَفْرَقَةِ!

أمجد النجار

روايـة أبواب

الله خلقني مدخلًا واحدًا، لأبوابَ متفرقة!

الجزء الثاني

أمجد النجار

فطوم

قبل سنتين... تقريبًا

كان هناك حلم لامرأة عاطلة عن الحب، انتهى حبلها السري عند مفترق ولدها الثاني.

الإنجاب، الذي كان وسيلة إلهاء عمّا تشعر به أيّة امرأة لم تحظَ في زواجها بفارس أحلامها، والتي أقصى ما تحقّق منها: طبلٌ متحرّك بعرجٍ طفيف، واكتساح مخيف للعواطف بذريعة **رجولية مصطنعة!**

سارحة بخيالها، وكأنّها أميرةُ ما بعد الساعة الثانية عشرة ليلًا.. لتوقظها من هواجسها، ساحرة عرجاء، ترمي لها بقرعة، لا بهدف تحويلها إلى عربة فاخرة، وإنما إلى مربى القرع، الذي يكتسح البيوت الحموية مع حلول فصل الخريف..

حيث كلّ شيء يتحول إلى الأصفر: أوراق الشجر المترامية، الغيوم الكالحة، وبشرتها الشاحبة..

يتهادى إلى سمعها من سطح البيت، صيحات لاعبي الورق، وهم يهمّون بالاقتتال لأجل آص الديناري، وأحيانًا بسبب ختيار الكوبة!

الأولاد يكبرون..

كانت تسمح لكل شيء أن يمر من خلالها، كجثّة هامدة..

ما تحتاج إليه الأن، مجسّ طبيب يشعرها كل حين بالأنين.

أنينٌ.. تشعر من خلاله أنها مازالت على قيد الحياة!

يأتيها صراخ ابنها من السطح:

- أمي... أمي!

- إي خالد!

- ساويلنا شاي، وإذا في كعك حطّي معاه..

ثم ينزل خالد بعد قليل إلى الحمام، فتصعد إلى السطح لتتأكد من عدد الموجودين، وقد سمعت أصوات أقدامهم يغادرون مع نزول خالد، ولغاية أخرى في نفس يعقوب، لمحته:

- أهلين أبو غالب..

- وجهك ولا القمر! ويضيف:

- أحلى فطوم بالعالم، بس ما تكوني ادايقتي آخر مرّة..

أبعدت عينيها المعلّقتين بعينيه، كمن يهرب من رصاصة! الارتعادة التي خلَّفها سؤاله، لم تفقدها رباطة جأشها، فأجابت:

- لن أتركك أبدًا، حتى لو تخلى كل العالم عنك!

- إنتِ أمي وكل شي بحياتي، وأنا معك للموت..

ثم أضاف:

- بكرا رح جبلك كرت وحدات، حتى تعبي تلفونك، بحب اسمع صوتك على طول..

- لا يا أبو غالب، لا تعذب حالك، ما بدي إلا سلامتك..

- مو على كيفك، بكرا ببعتلك ياه مع خالد، على أساس إنتي وصيتيني عليه..

- طيب.. متل ما بدك.

ذلك الرضوخ الناعم، الذي تمنحه المرأة لمن تحب، ليس خضوعًا، بل هو شكلٌ آخر من أشكال الاحتضان..

تلك اللحظة التي تتحوّل فيها، لا إلى تابعة، بل إلى أميرة مخملية متوجة بالحب!

كان كل ما حصل قبل تلك الليلة، مجرد قُبلة!
وما بعد القبلة مختلفٌ تمامًا..
عمّا قبلها!

٩

باب العودة

شوكة

كان الطريق إلى بيتها، مبللًا بالفرحة، كأن الرصيف نفسه قد غسل قلبه من الهمّ..
يتوسطنا خالد، يسير أمامنا بخطوة، يلمع في عينيه شيء من الفخر، هيبة هادئة، وفرح مكتوم، كمن نال نصرًا صغيرًا لا يقدر على الافصاح به، وقد شددتُ عليه الأمر بأننا سنخبر الجميع في الوقت المناسب.
ابتداءًا من **قهوة المأمورية**، التي أصبحت مقرًا رئيسيًا لتجمعاتنا ومخططاتنا، مع أبي غالب، الذي كان يسير بثقلٍ ظاهر، يتقلب وجهه بين ألم قديم وأمل وليد، بين ظالم ومظلوم، بين ضحيتين وجانٍ واحد: **أبو عمر، لقد ظلم فطوم المسكينة، وظلمني..**
يتمتم مع نفسه:
- والله لأقتله، قال شو: في شوكة بدّو ياها من عندي!
قلت له مطمئنًا:
- سنتعامل مع أبو عمر فيما بعد..
كان يغلي في داخله، فبادرته باقتراح كي أطفئ ناره:
- ما رأيك أن تزوره غدًا، ومعك شوكة كبيرة حديدية.. وتقول له: **"هذه هي الشوكة، إنها لك.. ولكن، إياك أن تغرسها في صدره!"**
لم يتوقف عن الضحك، بعد سماعه لهذا الاقتراح المجنون، قائلًا:
- أنت شيطان رائع!

- بإمكانك اعتباري منذ اليوم، مساعدك الشخصي.

توقفتُ لحظة، وسألته:

- أريد جوابًا صريحًا: هل تجاوز الأمر القبلة؟

هزّ رأسه بسرعة:

- كنت دائمًا بروح بسهر عندهم، وفي مرة من المرات كنا عم نحكي عالشغل والمشاكل العائلية، نزل خالد ليشتري علبة دخان وتأخر، حكينا شوي أنا وياها، ولما وقفت بدي روح عالبيت، وقفت معي، ولقيت حالي فجأة بين أحضانها، وبعدين صار اللي صار..

تابع، بصوتٍ خافت:

- ابتعدنا مباشرة، لما سمعنا صوت أقدام خالد قريبة من السطح..

سألته بهدوء:

- ماذا حصل بعد ذلك؟

تنهد، وقال:

- علاقتنا قويت أكثر، بس ما صار متل هالموقف مرة تانية، كانت بتحكيلي عن علاقتها بزوجها وأولادها، وعن تقصير زوجها في كل نواحي البيت، وكيف أنها صامدة في وجه الحياة وحدها..

وكنت أرسل لها الهدايا: هدايا عيد الأم، وفي عيد ميلادها، وحدات رصيد للهاتف، أتواصل معها على مدار الأربع وعشرين ساعة، أنام وأصحى على صوتها.

سألته متعجبًا:

- وكيف كانت تصلها الهدايا؟

- عن طريق خالد..

قلت بدهشة:

- أَيَعني أنك كنت على علاقة بأمه، وهو يعلم؟

- يعلم أني أقدّرها، متل أمي يعني..

- وزوجها؟

- لا تنسى فارق العمر، وأيضًا علاقتنا عائلية..

- طبيعي؟ الكلام لأربع وعشرين ساعة؟ الهدايا؟

- ما حدا بيعرف انو في علاقة حب أو أي شي تاني، كنت احكي للكل إنها أطهر إمرأة على وجه الأرض، وساعدتها بكتير أمور، مصروف البيت، وحتى خالد، لما كان رح يموت، كنت واقف معاهم..

- رح يموت؟ ليش؟

- التعاطي بكميات كبيرة، وقع على الأرض، وصار يطلع من تمه زبد أبيض، اتصلت فيني، أخدت سيارة جدي، رحنا على المستشفى، وعملنا له غسيل معدة..

- المسكين!

- مافي لا شغل ولا وظيفة، وخالد من نوع اللي آخد القصة على أنها مرجلة.

- وأنت.. ما زلت على وعدك، صحيح؟

- كلام رجال، وإن شاء الله رح كون أد كلمتي!

- وخالد؟

- ما بعرف، يناديه من بعيد:

- خالد.. إنت شو؟

- أنا الأصلي، على شو يا أبو غالب؟

يضحك من حماسه:
- على راسي الأصلي، عم يقول الأستاذ: إنك لازم تترك..
- أكيد يا معلم... منتركها بس بدك!
كنت أراقب حديثهما، الذي لا يخلو من لمحات سرية تتراوح ما بين الجدّ والهزل.

رمز الهاتف

أثناء سيرنا، كان الناس يحيّون أبا خالد بإجلالٍ واضح، ينادونه **بالباشا**، وكأنه أحد الملوك العظام!
فتساءلت مع نفسي: هل يعلم أهل الحي، بقصتهما؟
حاولت استعادة آخر لقاء لي معها، هل هي مسجونة في بيتها؟
أم أنه سجن معنوي، محكم الأبواب، وهل يمكن لامرأة مثلها أن تكون ساحرة!
كنا على وشك أن ندخل بيتها، عندما تذكرت أمرًا مهمًا، فسألته:
- هل كتبتَ كل شيء كما اتفقنا؟
هزّ برأسه:
- نعم، جميع الأوراق معي في السيارة.
صعدنا الدرج، وعلى غير العادة، لم نصادف جدة خالد، همست له:
- خالد، أخبرتَ أمك بأننا سنأتي، أليس كذلك؟
ردّ وهو يمضغ لامبالاته:
- عادي، أهلًا وسهلا فيكم، البيت بيتكم..
- كيف عادي! ..اسبقنا، وبلغها
- طيب، رح اطلع قبلكم، انتو اطلعوا.. عادي!

وصلنا الطابق العلوي، قالت بلهفة صادقة:
- أهلًا وسهلًا بالأستاذ... نوّرت!
ثم التفتت نحو أبو غالب:
- شلونك أبو غالب؟ زمان والله!
ردّ بتوتر خفيف:
- الله يسلمك خالتي أم خالد... شلونك إن شاء الله بخير؟
وقبل أن نستكمل أي حديث، تعالت أصوات أقدام على الدرج، لأكثر من امرأة، ومعهن بنتان صغيرتان، يبدو أنهنَّ من جيرانها الذين اعتدنَ السهر مع بعضهن.
أوحيتُ لأبي غالب بأن نؤجل الحديث، ففهم الإشارة، لكنه لم يكن من أولئك الذين تستوقفهم الظروف.. فاقترب منها، وهمس:
- في موضوع ضروري نحكي فيه، بس مو هلّق، منتواصل بعدين، رقمك لسه متل ما هو؟
ضحكت بخفة:
-أكيد، ولساته القفل على حروف اسمك!
ضحك، وتمتم:
- فطوم... إنتِ رهيبة، خلص، منتواصل بعدين..
استأذنا للخروج، بخُطى مثقلة بخيبة مؤقتة..
المنتصر الوحيد، كان أبو غالب، الذي استعاد قلب الفطوم، والتي بإمكانها أن تفعل أي شيء، كي يشعر ذلك **النبي البائس** أنّه بخير!

١٠

باب الاعتراف

موتٌ.. يشهد على الحياة!

تُعتَبر قلعة حماة، الموقع القديم للمدينة، والذي أُجريت فيه مؤخرًا، الكثير من حملات التنقيب، أسفرت عنها: أنها تعود بجذورها التاريخية إلى الألف الخامسة قبل الميلاد، عندما كانت عاصمة مملكة **حماث الآرامية!**

تلك التلة، التي لا يتجاوز ارتفاعها الـثلاثين مترًا، ومحيط قطرها التسعمائة مترًا..
تغطيها الآن طبقة صخرية، تراكمت عليها الأتربة، فتحولت مع مرور الوقت إلى غطاء عشبي بديع، يتخلله بعض النباتات الزهرية، بالإضافة إلى الأشجار المتناثرة من **سرو وصنوبر** وغيرها.
عندما تصعد ذلك التل، تجد في محيطه الخارجي، مطاعم صغيرة متفرقة، وفي وسطها ساحة ترابية، مليئة بالألعاب المتهالكة، مطلية باللون الأحمر والأزرق.
وعلى أطرافها، تتوزع الكثير من الكراسي الخشبية والحجرية.

وسط القلعة الداخلي، توجد حفرة ضخمة مليئة بالأتربة والصخور الأثرية، ضُرِبَ على أطرافها الخارجية بسياج حديدي. يُقال أن هذه الحفرة العميقة، كانت **مقبرة قديمة،** وقد يكون هذا صحيحاً، فتلك التوابيت الحجرية الضخمة تشهد على ذلك، من خلال الكتابات القديمة، والرسومات المنحوتة بحرفية عالية، والتي تعود – على ما يُقال – إلى العصر الآرامي..

إنه لَمِنَ المضحك حقاً، **أن يشهد الموت، على وجود الحياة!**

قداحة!

لدقائق..

كنت أقلِّب الأوراق التي استلمتها من أبو غالب، الجالس قربي، أحاول قراءة السطور، وما تحتها..

الكثير من الجمل المتكررة بطريقة عبثية، بحثت عن نمطٍ معيّن، دون أية جدوى!

سألته، متعجبًا:

- هل كتبتها كلها دفعة واحدة؟

أجاب نافيًا:

- أحيانًا... أشار إلى بعض الكلمات المتكررة وقال:

- انظر، هون، أجوا على راسي ورا بعض، برأيك ليش هيك عم يصير معي؟

فركتُ ذقني بأصابعي، متخذًا هيئة الخبير:

- يبدو لي أن هذه الكتابات من وساوس الشيطان، ولكن لا تقلق، هنالك مخرج لهذه الأفكار..

نظرت إليه بنظرة أكثر جدية، قائلًا:

- انزل من السيارة!

قال متفاجئًا:

- خير؟ شو صار؟ بنزل هلّق يعني؟

تراجعتُ مفكرًا:

- لحظة، خلي نمشي شوي، لمكان بعيد عن الازدحامات..

كنا قريبين من مقهى المأمورية، فقلت له:

- هل أنت ملتزم بالعمل الآن؟

أجاب نافيًا:

- لا، أخي موجود، أديش بدنا وقت؟

- نصف ساعة، تقريبًا..

- كتير منيح، يلا لشوف وين بدك توصلنا!

قالها بلهجته الساخرة، ولكنه ارتدّ فجأة كمن يراقب نفسه بحذر!

انطلقنا إلى القلعة، نزلنا في بدايتها، لنكمل صعودنا سيرًا..

أخرجت الأوراق عندما وصلنا إلى إحدى حواف القلعة، قرب مجموعة من الكراسي الحديدية البيضاء، همست له:

- أعطني قدّاحتك!

قال مازحًا:

- جايبني لهون حتى تشرب سيجارة بالسر؟

استلمت القداحة منه، مسايرًا لمزاجه الرائق:

- أريد أن أحرق الشيطان!

وضعت القصاصات على الطاولة، وقلت له:

- الأفضل أن تبدأ أنت..

- ماذا أفعل؟

- اقرأها بصوت عالٍ، كلمة كلمة، وعندما تنتهي من كل قصاصة، أشعلها وأحرقها، مخاطبًا الشيطان في نفسك: ها أنا الآن أحرقك، أنت ووسوساتك!

ذهوله من طلبي الغريب، لم يمنعه من مسايرتي، فأخذ الأوراق، وبدأ يقرأها، متبسمًا، ساخرًا، يهز برأسه:

- شو هالكتابة هاي؟ الله يلعنك يا شيطان، الله يلعنك!

إلى أن انتهى منها جميعًا، ثم نهض، ينفض ما علق من رماد على بنطاله، سألته:

- ماذا تشعر الآن؟

نظر إليّ، وقد تغيّرت لهجته إلى لهجة ساخرة يقلّد تلك الشخصية نفسها:

- ماشي الحال، ماشي، حرقنا الشيطان وخلصنا..

ثم عاد إلى لهجته الطبيعية:

- يعني أستاذ، ما عاد ترجعلي هاي الأفكار؟

أجبته بصدق:

- ربما تعود، لكن تذكّر ما فعلناه اليوم، وعندما تراودك أية فكرة من نفس هذا النوع، قل لنفسك: "الله يلعنك يا شيطان، روح من هون، أحسن ما أحرقك عالقلعة"

أولاد الحرام!

أثناء نزوله من السيارة مودّعًا، **رنّ هاتفه،** وقد كنت على وشك المغادرة، عندما لوّح بيده متعجّلًا:

- أستاذ، أستاذ !

بصوت مخضوض:

- خالد بالمشفى!

- أين؟ في أي مشفى؟

كان يستمع للهاتف، ويشير بيده إليّ أن أتوقّف، أشرت له بيدي:

- اصعد!

عندما صعد، قال بعد أن أغلق الهاتف:

- مشفى الحكمة..

سألته مستفهمًا:

- من المتّصل؟

فأجاب، بنبرة لا تخلو من السعادة:

- الفطوم، أم خالد..

متعجبًا:

- لماذا هو في المشفى؟ ما الذي حصل؟

- ما كتير فهمت، قالت لي: متل هديك المرة..

- يعني، بسبب التعاطي!

- ما بعرف، امشي، نروح نشوف شو القصة..

- والمقهى؟ أيمكنك الاعتماد على وليد؟

- رح اتصل عليه، وخبره إني رح اتأخر..

فكرة مجنونة خطرت في بالي أثناء سيرنا:

"ماذا لو كان هذا اللقاء مدبّرًا من القدر؟ أن يجتمع أبو غالب مع "الفطوم" في مثل هذه الظروف؟ "

أطلَّت من شرفة الطابق الثاني، لوّحت لنا، صارخة برقم الغرفة:

- قولولهم الغرفة ٢٤

أشار لها أبو غالب، ثم ضحك، قائلًا:

- الفطوم، لا تتغيّر. ما في أحنّ وأطيب من قلبها!

وأضاف غاضبًا:

- الله يلعنك يا أبو عمر!

تساءلت معه:

- هل مازلت متعلقًا بها؟ أو تحبها؟

أجاب نافيًا منكرًا:

- الفطوم متل أمي وأحسن!

قبل أن يكمل حديثه، واجهنا أبو خالد نازلًا من الدرج، لاهثًا

بعرجته:

- أهلًا وسهلًا بالشباب!

ثم، سلّم عليّ سلامًا خاصًا:

-أهلين أستاذ، طمّنّي عنك، شايف شو عم يصير مع خالد؟

- خير يا عمي، ما الذي حصل معه؟

أجاب بعد أن جلس على كرسي في الممر، نافضًا عرقه بإصبع يده:

- الله يلعن اللي كان السبب..

تابعته، لأستدرجه أكثر:

- من؟

يضرب يديه مع بعضهما:

- صار يلبِّط بالأرض فجأة، ويطلع من تمه زبد أبيض، من السم اللي عم يتعاطاه، الله يلعنهم كلاب، ولادين حرام!

أردت أن أستفهم أكثر، إلا أن أبا غالب قاطعني بغمزي من يدي، فانتبهت لأم خالد القادمة:

- أهلًا وسهلًا بالشباب، أهلين أبو غالب...

ثم بادرتني قبل أن يجيبها:

- كيفك أستاذ.. يا عيب الشوم، عم نعذبك معنا!

وقبل أن أجيبها، كانت تلتفت إلى زوجها:

- شو قالك الدكتور؟

- ما قال شي... هي كلو من ورا راسك!

- شو دخلني أنا؟! شوف اللي علّقوه بهالشغلة!

التفتتْ إليّ لتكمل حديثها:

- يا أستاذ، كل إنسان عنده عقل، وهو بيختار الطريق الصح

من الغلط. وأديش حذرناه، بس ما كان يرد على حدا..
أجبتها مطمئنًا:
- الله يهديه ويصلح حاله..
كان أبو غالب قد تقدّم إلى الغرفة وحده، ليطمئن على صديقه، وليهرب من مواجهة مباشرة مع أبو خالد والفطوم..
تتعالى ضحكاتهما من داخل الغرفة، فاستأذنت، ودخلت الغرفة.
كان خالد ملقىً على سرير أبيض، رابضٌ فيه مثل أسد، إلا أن قناة السيروم المربوطة إلى يده، تزجره عن الحركة..
- الحمد لله على السلامة!
- يا هلا وسهلا أستاذ، يا عيب الشوم، ما قادر وقف وسلّم عليك..
قالها وهو ينظر إلى أبو غالب، **فيتركركران** بهمسات لا يفهمها أحد سواهما، أردت مشاركتهما، بصفتي الناصح والأستاذ، مسايرًا لهما فيما يعتقدانني فيه:
- لازم تدير بالك على حالك وعلى صحتك، ما بكفي أمك وأبوك أديش عم يعانوا لحتى تكبر وتصير رجال، وأنت هيك عم تهدم حياتك بإيدك. كرمال شو؟ كرمال سحبة حشيش؟
خفضت صوتي عند آخر كلمة..
فأجاب، بنبرة حزينة:
- سوسة، ما عم أقدر وقفها..
أضاف أبو غالب:
- الحشيشة ما بتساوي هيك، بس أبو الخِل بيكون ساحب أكثر من نوع بنفس الوقت..
ثم توجه إلى خالد بالكلام:

- إنت صح راسك تقيل، بس ما بيصير تخلط وتخبص.. يعني الشغلة مو للأكل، للمزاج!

- يمكن بوقتها كنت جوعان..

ثم أطلق ضحكته الجنونية، عندما دخلت أمه، فقالت:

-الله يديم البسط والسعادة عليكم، ويبعد عنكم أولاد الحرام!

أجبتها وحدي:

-آمين

الغرفة ٢٤

نظرات غائمة، بين عاشقين قديمين، لمحتهما عن كثب، وقد انسحبا قرب نافذة الغرفة يتهامسان، فلم أوجل خطوتي الجريئة، للذهاب نحوهما، قائلًا:

- هل كل شيء على ما يرام؟

أجاب أبو غالب مخاطبًا أم خالد:

- والله الأستاذ فريد ما في منو..

فأجابته، ناظرة إلي:

- والنعم منك أستاذ، أخلاق وعلم وأدب.

- الله يسلمك خالتي، وإن شاء الله بتشوفي خالد بأعلى المراتب.

تابع أبو غالب:

- الأستاذ بيعرف كل شي، هو اللي قال لي إني ما كنت مسحور، وخلاني شوف حقيقة الكذاب أبو عمر..

كنت مصدوماً أمام تتابع كلماته:

- أبو عمر ضل يلعب براسي لحتى أنا صدقت، بس والله ما

رح أتركه بحاله، إلا ما أعطيه الشوكة..

نظر إليّ ضاحكاً:

- مو هيك، لازم نعطيه الشوكة، بس الله أعلم وين!

أجبته:

- في يده.. نريد أن نطوي الماضي ونبدأ من جديد.

علّقت مؤيدًة:

- ما في أبشع من الماضي. أنا كتير تعذبت من ورا هي القصة، بس الله على الظالم!

أبو غالب متل ابني خالد، شلون بدي اعمله سحر؟

يا ريت أعرف بالسحر، لكانت حالتي غير هيك..

ثم أردفت بدموعها:

- كل هالسنين، وأنا عم ادعي الله ياخدلي حقي..

أجبتها، مخففًا عنها:

- لعل الله أرسلني حتى آخدلك حقك، وهي أبو غالب قدامك، حتى يمحي الماضي والقصص اللي كانت عم تنحكى..

أجاب، جازمًا:

- وأنا قدام الأستاذ وقدام كل العالم، بعتذر منك على كل شي، وأنا جاهز لأي شي بخدمتك. منرجع متل أول وأحسن..

أوقفته:

- شو ترجعوا متل أول!

خلي القصة بيناتنا حالياً، يعني بس خالد وأبو خالد والمقرّبين. بعدين منرتّب كيف بدنا نعلنها.

المهم حالياً وجود أبو غالب معكم، هو ضربة قوية لكل الكلام اللي كان ينقال..

- أكيد... ورح أعتذر كمان ادام عمي أبو خالد.

- بتكون عملت اللازم، وزيادة..

كانت دموع أم خالد تنهمر بغزارة، فأسكتَتْها بسيجارة متوترة، قلتُ لها:

- لا يجوز التدخين في المشفى!

فقالت، بلا مبالاة:

- بس سحبتين وبكبا لبرا، عم طالع الدخان من الشباك..

نظرت إلى أبو غالب، الذي كان قد صوّب نظره نحو خالد، قائلاً له:

- أبو الخِل، أخوي الغالي، وهي صلحنا كل شي مع الفطوم.

- عال العال!

همستُ لأبي خالد:

- شو هي الفطوم؟

أجاب مازحًا:

- هي اللي قدامك مختارة الحارة، كلهم بينادوها فطوم..

أجابت من بعيد:

- الله يعزك ويديمك لأهلك، أبو غالب متل أولادي وأعز، والله يقطع اللي قطعنا..

من هذه النقطة، كان هناك سؤال فظيع يحوم فوق رأسي، لا أدري كيف أصوغه لهما، ولأني لم أستطع البوح، تركته عالقًا في دوامة أفكاري، **وقد لاحت لي فرصة لأمر آخر لا تقل أهمية عن الأمر الأول!**

استجداء

أسرعت إلى خالد، لأهمس له:

- هل أخبرت أمك وأبوك بشأن الجامعة؟

فتح عينيه بذهول:

- أوعاك أستاذ!

- الآن أفضل فرصة، الجميع يعلم بمشاكلك، ولن تضيف هذه المشكلة أمرًا خطيرًا..

- لا أستاذ، ما بدي وجع راسي!

- لا يوجد أي داعٍ لتكمل في كذبتك، أخبرهم الآن!

- والله ما بعرف.. أجاب وهو ينظر إلى أبو غالب، من بعيد.

قاطعت استجداءه:

- أبو غالب لن يتحمل عنك أي ذنب، أنت المسؤول الوحيد عن حياتك..

- والله غلط يا أستاذ، رح يزيد عليهم الهم والغم!

- لا أعتقد ذلك، ثم هل تظن أن أباك وأمك لا يعرفان، أو أنهما لا يشكان في شيء؟

- ما في هيك شي..

- أين الكتب، أين تحضيرك ودراستك، وأنت طوال الوقت خارج المنزل، هل تعتقد بأن أمك لم تلاحظ ذلك؟ أين سجل الدرجات لنجاحك كل عام؟

- لا تخاف عليّ، أنا مدبرها!

- في النهاية سيعلمون، والآن أفضل من الغد.

انضم إلينا أبو غالب، يهزّ برأسه، وقال بجدّية:

- معاه حق الأستاذ..

فانصاع له تمامًا، ونادى أمّه الشاردة:

- أمي، بدي قلك شغلة بتخص دراستي..

- بدك تترك الجامعة؟ والله كنت عرفانة وقلبي حاسسني!

ضحك قليلًا، ثم تابع:

- ليش أنا مبلّش أصلًا، حتى اترك!

كصاعقة، لا، بل كبرق، انقضت على سريره، تشدّ رقبته:

- والله بخنقك، شو هالكلام!

- شيلي إيدك، رح تخنقيني..

- والله موتك أهون عليَّ من هالكلام اللي عم اسمعه..

- ما قدرت كمل بالجامعة، وحاليًا عم اشتغل بمكتب بالشام..

- لك شو هالحكي، والدراسة.. والكتب.. والملخصات؟

الله يلعنك يا كلب!

- هي خبرتك، حتى يصير عندك علم..

- ما شاء الله عليك مستعجل، صارلك أربع سنين عم تروح وتجي عالشام، تيتي تي، متل ما رحتي، متل ما جيتي، والشغل اللي وعدك فيه الأستاذ؟!

على أساس ابني رح يصير أكبر صحفي بالبلد؟

الله ينزع مساك متل ما نزعت مساي!

حاولتُ تخفيف حدة الموقف، فغمزته ليتركني أتكلم:

- مشان الشغل، أنا رح رتّب له وظيفة معي بالجريدة، بس بدي منه شهادة تزكية من مكتب التصوير يلي عم يشتغل فيه بالشام..

بنظرات مراوغة، ضحك بخفة:

- أنو مكتب تصوير؟

أصابني مس أمه بصعقة كهربائية حادة.. **لقد كان يكذب عليَّ أيضًا!**

- بأي مكتب تعمل إذن؟

- بمكتب العقاري.

- لك شلون؟ مو وعدتني تجيب شهادة تزكية؟

قاطعني:

- اشتغلت فترة، واتقاتلت معاهم وتركت، وبعدها اشتغلت بمكتب عقاري..

إنت طلبت مني احكي الصدق..

تمالكتُ نفسي:

- مو مشكلة، المهم إنك عم تشتغل، ومنشوف كيف نظبط الوظيفة.

ثم أضاف:

- المكتب عنده بيوت للإيجار أو للبيع، ومرّات بقعد فيهم بدون أجار، ومرّات بدفع شهر أو شهرين، بينما يفضى شي بيت، بنتقل عليه ببلاش..

أهز رأسي مندهشًا من تلك التفاصيل المشوشة، بينما انسحبت أمّه إلى النافذة مجددًا، لتقابل أبو غالب الواقف هناك..

عرجةٌ.. ووصيَّة!

وقفتُ مصدومًا بين هذه الفوضى، أثناء دخول الممرضة التي صارت تفتح النافذة، وتنفض الدخان من الغرفة، قائلة:

- لا يجوز التدخين هنا، رجاءًا

فأجابها أبو غالب، دون أن يرفع نظره:

- ما في حدا عم يدخن، هي الريحة من برا..

ثم أغلق النافذة، وقال بابتسامة مصطنعة:

- شايفة، راحت الريحة..

ردّت الممرضة، ببرودٍ مهنيّ:

- مو مهم من وين، هاد مشفى، مو مقهى!

تدخلت أم خالد معتذرة بابتسامة باهتة:

- ولا يهمك، حبيبتي.. إمتى فينا نطالع خالد؟

أجابت وهي تهمُّ بالخروج:

- لحتى يجي الدكتور ويقيّم حالته. ومنشوف إذا بتقدروا تطالعوه اليوم أو لا..

صاح خالد، بنبرة ملولة:

- ما فيني شي، خلص، صرت منيح

كانت على وشك إغلاق الباب عند خروجها، إلا أن **أبا خالد** قد دخل في نفس الوقت، وتركه مفتوحًا، وكأنه على استعداد للخروج، وقف أمام السرير:

- شو، شلون صرت؟

أجاب بامتعاض:

- بخير، يلا خلينا نرجع عالبيت.

قالت أمه:

- لا، مو هلئ، بس يجي الدكتور ويشوف وضعك.

أما أبوه، فهزّ برأسه متفقدًا المكان بنظراته:

- أهلين أبو غالب، كيفو أبوك وجدك؟

- الحمد لله بخير، بيسلموا عليك عمي..

اقتربتْ منه أم خالد وهمست له:

- لقد جاء ليعتذر من الموضوع القديم..

فصاح بها:

- ما خلصنا من هالقصص؟

أنا قلتلك، البريء الله بينجيه، والله على الظالم!

فهم أبو غالب ما يدور بينهما، فقال:

- عمي، أنا إجيت لحتى شوف خالد، وصادف إني شفت أم خالد، والأستاذ الله يجزيه الخير، هو اللي خلاني شوف الحقيقة، وأنا اعتذرت من أم خالد، وكمان رح اعتذر منك على كل شي صار، وحقك عندي، وإذا مو عندي، عند أبي وجدي..

بعنفوان محارب منتصر، التفت عنه، كمن لا يريد أن يأخذ غنيمته، أجابه:

- مو مشكلة عمي... كل شي إلو حل. وأشكرك على صدقك!

ثم خرج، مغلقًا الباب خلفه..

في تلك اللحظة، سمع جميع من في الغرفة صوت عرجته يختفي شيئًا فشيئًا.. في الممر، ثم على الدرج، كلما ابتعد، ازداد إيقاعها الرتيب**! لم يكن قد غادرنا تمامًا، بل استقر في وجداننا، كوصية غير معلنة!**

١١

باب العنين

سُلَّمٌ رُوحيّ

النواعير: آلات ماء خشبية دائرية الشكل، مصنوعة من خشب الجوز حصراً، تدور بالقوة المائية، وتنقل ماء النهر بصناديق تحيط بها من كل جهاتها.
حيث تنفتح الصناديق العلوية والسفلية معاً؛ الصناديق السفلية تملأ الماء كمغرفة، فتفرغ الصناديق العلوية حمولتها، لتصب داخل **قناطر حجرية**، مائلة بزاوية مدروسة، مصوبة نحو البساتين الممتدة لمسافات شاسعة.
ليمطر الماء من تلك الفتحات الصغيرة، على طول امتدادها.
وكأنها عاملة لا تكل ولا تمل، دائمٌ عطاؤها بدوام جريان نهرها، روحها ودمها..
بهذه الطريقة العبقرية، كان الناس يعتمدون عليها في الري، وبالاستفادة من قوتها الحركية في طحن الحبوب، عبر غرف حجرية صغيرة ملاصقة لنقطة التلاقي بين الناعورة والقنطرة.
عند ملتقى الماء بالشجر والحجر والبشر، وبتلك الآلات الموسيقية الشجيّة في **"عنينها"**، الذي تصغي إليه، فتسمع منه رحلة سنين طويلة غابرة؛ لحنٌ مليء بالعزة والكبرياء.
ما بين **"دو ري مي فا صو لا سي"** يكوّن مع تكراره **سلمًا روحيًا للنفس البشرية!**
يتابع النهر جريانه، هادئاً، رصيناً، ساحراً، محتفظاً بكبريائه، مخلفاً وراءه مروجاً، وزرعاً، وروحاً، وحياة، وموسيقى!
أقيمت على ضفاف نهر العاصي، الكثير من المشاريع السياحية والخدمات المحلية لسكان المدينة وزائريها، مقاهٍ، ومطاعم

خلابة مطلة على النهر، مصحوبة بصوت الماء والعنين.
خشب يتحدث في كل دورة من دوراته عن تاريخه العريق،
ونغم شجي: يسمعه **الحزين** فيواسيه، يسمعه **السعيد** فيرقص،
ويسمعه **التعيس** فيتعلم الدرس، أن ما يمر به، إنما هو شكل من أشكال دورة هذه الناعورة، بين صعود وهبوط، ما دمت في كل مرة تسقط فيها، تنهض من جديد!

همهمات بشيء من الكسل الكاذب

بخطىً متثاقلة، يدخل عتبة البيت، من بوابة حياة كانت حياتي..
والتي انقلبت رأساً على عقب، إثر هذا الدخول الليلي المفاجئ!
كترنيمة هادئة، تسمعها وحيداً أثناء سيرك في شارع
الكورنيش، فتشعل في داخلك حرائق، تكاد لا تنطفئ..
دخان، وأبخرة، ترافقها أصوات طقطقة الخشب، متصليًا تحت وطأة اللهب!
هل كنت ألعب مع النار، أثناء اعتقادي أنني أطفئ الحريق؟

بعد أن جمعتنا صدفة أخرى، قرب النهر، وقرب ذات
الناعورة، التي تأوّهت يومًا، **لسماع صرخة خالد المدوية!**
ها هي الآن، تقف شاهدة على موعد مختلف..
مع إنسان، لم يتسنَ للحياة أن تكتبه في منتصف الصفحة، وإنما على الهامش دومًا!
ذلك الهامش، الذي يحتلُّ حياتنا، مع كل دفتر.
يتجول في منزلي، خفيفاً كنسمة، ثقيلاً كروح متعبة!

في المطبخ، يفتح البراد، يجول بنظره وكأنه يحفظه، وقبل أن أنبس ببنت شفة، يغلق بابه، وقد أخذ **خيارة** من درجه السفلي، وقضمها، بعد أن مررها قليلًا على ثيابه المتسخة..

في الصالون، حيث أجلس عادة مع أنور، لنتحدث عنه، ها هو على الأريكة نفسها، ينظر إلى سقف الغرفة، يشعل سيجارة بقداحته التي بدت أنها لا تعمل، رغم ما تزفره من لهب، إلا أنه يعاود قدحها، كمن يستأنس بطقطقتها!
أخيراً، قرر الإمساك به، يشعل سيجارته المنتظرة..
كان كمن يفتح فألًا، أو يقرأ فنجانه في طقطقة النار!
لم أنتبه لعدم وجود المنفضدة..
وعندما رجعت بها من المطبخ، كان قد أنهى سيجارته الأولى ورماها بازدراء على الأرض!
التقطتُّها، ووضعت المنفضدة أمامه..
لم يعتذر.. أو ربما اعتذر، **بهمهمات بشيء من الكسل الكاذب!**
هل حصل بيننا أي حوار؟
ليس تماماً، مجرد نظرات خاطفة، وانتهى الأمر!
ذهبتُ، إلى المطبخ لأعد العشاء، لدي القليل من المعلبات، والبيض، وبعض الخضار، رتبتها في صينية كبيرة، وضعت إبريق الشاي على النار، وذهبت بها إليه.
من أين راودني ذلك الشعور..
ففي لحظة مغادرتي وعودتي لإحضار ابريق الشاي، كان الطعام قد انتهى!
شعرت بالخجل لأن الطعام لم يكن كافياً..

راجعت نفسي، لا، لقد كان يكفي لأربعة أشخاص على الأقل، قلت له دون أن أُشعره بالإحراج:

- صحتين أبو الزوز..

بإجابة سريعة وقد تفتحت عيناه كوردة ماء:

- على قلبك، فيني أتحمّم؟

- بالتأكيد، انتظر سأتأكد من وجود الماء الساخن.

تلمَّستُ الآظان:

- إنه حار، يمكنك الاستحمام.

بسرعة برق، كان في الداخل. قلت له مشجعًا:

- خُد راحتك!

أجاب، باقتضاب:

- على راسي أستاذ، وأغلق الباب بهدوء.

فانفتحت في رأسي مئات الأسئلة:

لماذا هو معي في هذا الوقت من الليل؟

ما الذي أفعله!؟

كنت أنظر إلى المنفضة، التي بدت مكتظة بأعقاب في منتصف عمرها!

تذكرت أنور، الذي انشغلت عنه مؤخرًا، كم سيسخر مني، ولديه كل الحق.. بالطبع سيكون سؤاله الأول:

كيف التقيت به بعد كل هذا الانقطاع؟

زكامٌ.. في موسم مختلف!

..كما رأيته أول مرة!
مرميًا، ولكن ليس على كرسي في حديقة، وإنما على حافة الموت، أمام ناعورة الجسرية، مقابل القلعة!
كانت الصُدف تمطر على حياتي، وفي كل زخة تحمل معها رائحة التغيير في مناخيَ الداخلي..
بين حلمه نصف النائم، وحياته المحطّمة، المنيعة عن الأمل، والبعيدة عن الاستسلام!
بين شرودي العاطفي، وعفويتي البكر، ورأسيَ الذي يتحول فيه كل سؤال، إلى سؤال أعمق منه..
كان **"هو"** الإجابة التي التقطتُها هذا اليوم..
من ذلك الخواء، وتلك الزحمة التقت أقدارُنا، والتقطتُّ قصته، كمن يلتقط **زُكامًا** في تقلُّب موسمين!
نظرت إلى جسده الممدّد على تلك الحافة، المصبوب عليها أعمدة حديدية، لتثبيت السياج المطل على النهر، حيث لا يمكن لعاقل أن يستند بكامل قوّته، فما بالك بجثة تعيش أحلامها هناك!
- هل هذا هو؟ تجمد السؤال في فمي!
اقتربت ببطء، متسائلًا مع نفسي:
- من أي شيء يهرب هذه المرة؟
ولكن، أنا الذي سأهرب الآن، متجاهلًا الورطة التي ستحل به إن توقَّفت.
وهذا ما هممتُ بفعله، عندما أدركني صوته من بعيد:

- الله حيو أستاذ!

تردّدت قليلاً، إلا أن قدماي، وكأنها قد تواطأت مع ندائه، فالتفتُّ، متقدمًا إليه:

- هذا أنت..

- ما تذكّرتني؟

- أكيد، وينك؟ زمان ما شفتك!

- هون والله!

- ليش نايم هون؟

- لا ما نايم، بس تعبان شوي، قلت بستريح شوي، ولمحتك من بعيد، كنت بدي احكي معك لما توصل لعندي، بس شفتك درت ضهرك، قلت لحالي: بعيطلك، وبسلّم عليك!

- وين كنت؟ ليش تيابك موسّخة؟

- بالشغل، رجعت تعبان، ورايح عالبيت بعد شوي..

- الله يقوّيك... شو عم تشتغل هالأيام؟

- مكانيك سيارات، اليوم أول يوم..

- هاد هو الصح. الإنسان بدون شغل ما بيقدر يعيش..

- إي والله..

- يلا، بدك شي؟

كان يقف قبل أن أسأله، وكأنه فهم قراري، فقال:

- والله يا أستاذ، أنت ما في منك، حابب أتمشّى معك شوي..

- يلا، خلي نتمشّى شوي، حتى تصحصح، وترجع على البيت.

كنت أختلس النظر إليه، إلى مشيته القوية المتعثرة..

لم يكن بالقصير، ولا بالطويل، في نهاية الثلاثين، أو لعله بداية الأربعين، ببشرة سمراء مشبعة بالشمس، بوجه بيضويّ

عريض، تزينه لحية خفيفة، تُضفي على ملامحه وقارًا غير متكلف!
حاجباه كثيفان، وعيناه سوداوان، حادّتان حينًا، ساهمتان في معظم الوقت، كأنهما تبحثان عن شيء مفقود منذ الأزل!
سرواله مليء بالجيوب، يكشف عن ساقين غليظتين، يداه قويتان، عريضتا الأصابع مع بعض الندوب حولها، يمشي بثقة من لا ينتظر شيئًا من الحياة، بل كأنه من يمنّ عليها بوقته!
إنه من أولئك الذين، حين يمرّون، لا تلاحظهم فورًا، لكنك حين تراهم، لا تنساهم أبدًا!

درسٌ.. بعد منتصف الليل!

رمى آخر أعقابها، وقال بأدب جمّ:
- أستاذ، ممكن إسألك سؤال؟
أجبته، مستغربًا لهجته، التي لا تتطابق مع حالته:
- بالتأكيد يا زياد، اسأل ما تريد..
قال مسترسلًا:
- هلّئ أنا بحب وحدة، بس هي ما بعرف إذا بتحبني ولا لاء... فيا شي إذا رحت وسألتها؟
- الحب لا عيب ولا حرام، على العكس، حقك المشروع أن تبادرها بالسؤال.
يصمت قليلًا، ثم يعيد السؤال..
حاولت أن أخبره أنني فهمته، لكنه توقف فجأة بعد أن لمح كرسيًا قريبًا:
- ممكن نقعد شوي؟

أجبته **بالموافقة..**
اتجهنا إلى ذلك الكرسي الخشبي، المطل على النهر، الذي لم نعد نسمع خريره، وكأنه كان يسترق السمع إلينا.
تداخل في مسمعي، خشخشاتٌ، بدأ بتفريغها من جيبه: أوراق، ومعادن، وقداحات، وعلب الدخان الفارغة، أو التي ربما تحمل بعض السجائر النائمة **للقَطْعَة.**
ثم، وبكمشة واحدة، ردَّها جميعًا إلى جيب واحد، بعد أن وجد علبة الدخان الجديدة**!**
تلك القداحة تسعل مرة إثر أخرى، إلى أن اشتعلت على مهل..
بدت السيجارة في يده، قصيرة جدًا ونحيفة جدًا، مع أنها من ذلك النوع الثخين والطويل، الذي **يعبّي الراس!**
أنهاها على عجل، وأشار إليَّ كمن يعتذر بصمت:
"انتظرني، سأبدأ بعد قليل"
كنت أراقب الجو، الذي تحول ببطء من قيظ الصيف، إلى كآبة الخريف..
أستمع إلى أصوات النواعير، المختلطة بالأغاني المتطايرة، كهذه الأوراق الصفراء التي أُداعبها بقدمي، على أمل أن ينتهي من شروده، في ذلك المكان المعزول عن العالم**!**
- إي أستاذ، بس كنت عم ركّز شو بدي أحكي..
- خُد راحتك..
ثم استرسل:
- أنا بحب وحدة... فيا شي؟
- ما فيا شي.
- يعني عادي، إذا رحت سألتها: إذا بتقبل تتزوجني أو لا؟

- إي أكيد عادي، وأنا بشجّعك على هالشي، كم عمرك الآن؟
- تقريبًا، أربعين سنة، ما بعرف بالضبط!
- أديش مواليدك؟
- ١٩٧٠
- يعني، عمرك الآن أربعون سنة، أنت متأخر!
- هيك قولتك؟
- ما تزوجت من قبل؟
لم يُجب عن سؤالي، أو ربما لم يسمعني بوضوح، بسبب مرور تلك السيارة الصاخبة خلفنا، تابع كلامه:
- يعني ما فيا شي إذا رحت سألتها، صح؟
- أكيد، وإذا بدك، بروح معك..
بالطبع، كانت أسوأ مجاملة أنطق بها في حياتي!
قال بحماسة :
- عنجد، بتروح معي!؟
أجبته، نصف متردد:
- شو فيا، بروح معاك، وبستناك من بعيد..
- يعني فيك تروح تقلها: في شخص بدو يحكي معك؟
لا مهرب من الإجابة:
- سأحاول من أجلك..
بعكسي تمامًا، ازداد حماسه بعد سماع تلك الإجابة، فسحب سيجارة أخرى، قلت له:
- بس أكيد بدنا نضبط الوضع..
- شلون يعني؟
أشرت له إلى ملابسه، قائلًا:

- الوضع!
- قصدك تيابي وهيك؟ لا، أنا بعجبك، أكيد رح ظبّط حالي على آخر طرز..
- كتير منيح، احكيلي: هي من وين؟ جارتكم ولا كيف؟
- لا، مو جارتي، كنت بسمعها!
- وين بتسمعها؟
- إذاعة صوت الغد!
توسعت عيناي:
- وين؟
- كنت متابعها على هاد البرنامج الصباحي، يلي بيحطوا فيه أغاني!
- إي..
- مرة اتصلت وقلت لها: حطّيلي أغنية: لما "بضمك عصديري"
- وحطّتها؟
- طبعًا، واتصلت فيها أكتر من مرة، فيا شي؟ إنت أستاذ ودارس وبتفهم..
- ما غلط أبدًا إنك تحاول، بس بركي متزوجة أو مرتبطة أو صغيرة، يعني ممكن تكون لسه ما مفكّرة بالزواج؟
- لا، كبيرة، واعية..
- أيواه..
- يعني بتروح معي عالشام، نحكي معاها؟
- منجرب، ما فيها شي..
شغفه بالحديث عنها، يفتح قنوات جديدة في رأسي وبأفكاري..

ما المانع حقًا في أن يرفع الإنسان من سقف طموحاته؟
لماذا أرضى بالفتات، إذا كان بإمكاني الحصول على حصتي كاملة؟ ولن أخسر أي شيء، يكفيني شرف المحاولة!
إنه منطق قوي، مليء بالثقة والشغف، على عكس منطقي الذي يخاف من نظر الناس إليه، وبهذا أضعت مئات الفرص التي قد تقلب حياتي رأسًا على عقب.. **إنها شجاعة الاختيار!**
شعرت بأنني قد استفدت حكمة رفيعة، من مرتبة شخص، خاض كل شيء في الحياة، وما زال يحارب من أجل أن يكون على القمة!
مع ازدياد حماسي لاكتشاف شخصيته العجيبة، سألته:
- هل تعرف صاحبة الصوت في الإذاعة؟
- بعرف اسمها، وشفت صورها عالتلفزيون..
فهو إذًا ليس بذلك الأحمق، الذي يعتقد بأن هناك ارتباطًا ما، بين جمال الصوت والشكل!
باتت عزيمتي مشدودة، لأتابع قصته، من أجله أولًا، ولأتعلم منه، ولأُثبت لنفسي أنني على حق..

مناورة داخلية..ضدي!

الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل، هممت بالانصراف، بعد أن تبادلنا أطراف الحديث بشكل مقتضب..
- لوين؟
- عالبيت، الوقت تأخر وبكرا عندي دوام.
- ليش وين بتشتغل؟
- بالجريدة، مو قلتلك؟

- إي إي، بالجريدة... بتعرف فلان؟

سألني نفس السؤال الذي سألَتني عنه أمه:

- بعرفه من بعيد، يعني ما في علاقة قوية.

-آها... شلون رايح؟ بتوصلني معك؟

- تكرم عينك، تعال نمشي شوي، لأن حطيت السيارة جنب القلعة.

في طريقنا إلى السيارة، بدا مرتبكًا، كأنه يرتب لحديثٍ آخر، ثم قال:

- ممكن أطلب منك طلب؟

- تفضل!

نظرًا لحالته، خطر في بالي أنه يريد بعض المال.. لكنه قال:

- الوقت تأخر، وأمي بتكون نايمة، وأنا ما معي مفاتيح البيت، ما رح أقدر فوت عالبيت، ومتل ما بتعرف، بكرا عندي شغل، لازم نام ع بكير، ما رح اقدر أنطر أمي لحتى تفيق على صلاة الصبح وتفتحلي الباب....

كنت أستمع إليه، وأرتّب في داخلي جوابًا لسؤاله المتوقع:

"أنني لا أستطيع"، أو **"أنني سأنام عند أهلي هذا اليوم"**،

ولكن ما الذي حفزني على إجابته بطريقة مغايرة تمامًا، بعد أن سألني:

- ممكن نام عندك اليوم؟

أجبته، متجاهلًا كل مناوراتي الداخلية لمنعه:

- كل الهلا فيك، يلا تعال..

حمَّامٌ.. وأعقاب

في تلك الليلة، لم أستطع النوم، كانت الأسئلة تحوم فوق رأسي، تكاد تخنقني، كرائحة سجائره المنتشرة في أنحاء البيت!
لم ينم أيضًا، أسمعه يتمتم قليلاً، ثم يسكن سكونًا تامًا، لساعة أو لساعتين!
يتحرك، فتتحرك الأريكة تحته، محدثة احتكاكًا مزعجًا، فيَطنّ في أذني طنينًا لا يدعني أستقر في نومي..
كان السؤال الأهم، حاضرًا بقوة: **"ثم ماذا الآن؟"** يتردد صداه دون أية إجابة، وكأني تركت يد القدر تسوقني، مستسلمًا لهذه المغامرة..
لن أتركها حتى أحقق شيئًا، فيستوقفني سؤال آخر:
"ما هو الشيء الذي أريد تحقيقه؟"
لا جواب.. ضباب الأسئلة يتراكم في داخلي، إلى أن انقشع أخيرًا، مع أول طلوع للشمس!
صوت شخيره يعلو شيئًا فشيئًا، برعب تساءلت: يا إلهي، يجب أن أذهب للعمل، الساعة الآن السادسة إلا ربع، عليَّ أن أهيّئه ليستيقظ، ويرحل، ناديتُه بلطف:
- زياد... زياد!
لم يرد، اقتربت أكثر:
- زياد، ألوو؟
لم يتحرك إطلاقًا، هززته من كتفه، ناديته بصوت أعلى هذه المرة:
- زيااد، يلا قوم!

تحرّك أخيرًا، نظر إليّ بعين نصف مفتوحة وصوت أجش:
- أهلين أستاذ، يلا، بس شوي، وتابع شخيره**!**
- قوم يا زياد، لازم روح عالدوام، رح ساويلك قهوة..
ذهبت إلى المطبخ لأغسل وجهي، وأعدّ القهوة. كان الماء فاترًا، فقررت الاستحمام على عجل، عندما أشعلت الضوء، رأيته وكأن معركة صابونية قد دارت على أرضه**!**
علبة الشامبو ملقاة بإزدراء، لوح الصابون على الأرض، كل شيء مبعثر تمامًا، مشيت بينها متشبثًا بالحائط، خشية سقوطي المحتمل: **هل كان يستحم أم أنه كان يحارب ضد جسده!**
شعرت بالغضب والحنق من هذا المنظر المقرف.. ثم، وبشكل ما، تحول ذلك الغضب، إلى ابتسامات متراكمة، وقهقهة داخلية**!**
كانت المرة الأولى التي أشعر فيها بالسعادة، مع كل هذه الفوضى**!**
عندما انتهيت، كانت الساعة تشير إلى السادسة وعشر دقائق، تمتمت مع نفسي: يجب أن يقوم الآن، بالتأكيد، لن يكون قادرًا على المضي إلى بيته دون أن يوصله أحد، سأوصله، وأعود إلى المكتب..
من بعيد، تحوم بضع أسئلة، لم أعرها أي اهتمام.. أسئلة من نوع: **لماذا أفعل ذلك؟ ما الذي يُجبرني؟ انظر إلى الفوضى التي خلّفها في كل مكان، إنه مُشرّد، هل هذا مستواك يا فريد؟**
أردته أن يستيقظ، ويشرب قهوته، لأتوَجّه به إلى بيته..
هناك، أعطيته رقمي، ليتصل بي، لنتفق على موعد لأذهب معه، إلى عشيقته المحتملة..
معلنًا، إنسحاب عقلي، لصالح مشاعري المتداخلة!

١٢

باب الضياع

مناقيشٌ.. بلا موعد!

- روح عاليمين...

- وهي رحت عاليمين، وبعدين يا زياد؟

- خلص، أنت روح، متل ما عم قلك..

كنا نغادر شارع العلمين، يمينًا باتجاه حي الشريعة.

السيارة تعبُّ برائحة العجين الفواحة، لم يعكر صفوها، سوى دخان السجائر، لا أدري كيف يستطيع الرجل، أن يدخن على معدة فارغة!

كان صامتاً طوال الطريق، غريباً عمّا كان عليه حين توقفنا لنشتري بعض المناقيش وزجاجتا عصير..

أثناء انتظارنا، مرّ أحد أصدقاء زياد، بادره السلام، فردّ زياد النظرة والتحية، تبادلا ابتسامة قصيرة وانصرف الشاب، لكن زياد، بقي يحدّق في الفراغ، قبل أن يتحرك نحوه فجأة، يربّت على كتفه، يضحك، ويقول شيئًا لم أسمعه، ثم يعود شاردًا، مطأطئ الرأس، وقد ابتلع نصف ابتسامته، ليسأل صاحب الفرن:

- شو، ما خلصت؟

فأجابه:

- يلا دقيقة وبيكونوا جاهزين. بدكم منقوشتين جبنة ووحدة زعتر؟

هزّ زياد رأسه موافقًا، وأضاف:

- ورح ناخد معهم عصير، وكرر سؤاله:

- مطولين؟

أخرج الخباز المناقيش من الفرن، زعتر يغلي تحت فقاعات من الزيت.. تلك الرائحة الشهية، التي تفتح آفاق المعدة، لم أستطع مقاومتها، هممت بالتهامها، فسبقتني يد زياد، الذي صار يقطعها قطعًا صغيرة، بعيني طفل لم يأكل منذ أيام، ثم قال :

- جيب العصير، والحقني عالسيارة..

خلال لحظات، كنا في الطريق إلى حي الشريعة، قلت له:

- وين رح ناكل؟ رح يبردوا المناقيش!

هز برأسه، وقال:

- شو قلتلي... يلا، يلا هون، على كتف الوادي!

رغم أنني لم أكن بأفضل حالاتي، إلا أن ما أردته حقًا، أن يعود زياد ليواجه الحياة بابتسامة!

ففي كل صباح يوم جمعة، أخرج من بيت عائلتي باكرًا، متجهًا نحو بيتي، لأتجهز لصلاة الجمعة..

أثناء سيري باتجاه جامع السرجاوي، صادفته على قارعة الطريق، سألته:

- شو عم تعمل بهالوقت!

- رايح عالشغل..

- اليوم جمعة، يازياد!

سألني عن السيارة، فقلت إنها مركونة قرب بيتي، فقال:

- شو رأيك نفطر سوا ؟

فوافقت على اقتراحه، شوقًا له ولأحاديثه، بعد انقطاع دام عشرة أيام!

روحٌ تتكسر!

وصلنا إلى كتف الوادي، فقال لي:

- انتظرني هون، ولا تلحقني..

قلت في نفسي: لعله ذاهب ليتبول، لكنّه ابتعد كثيرًا، مختفيًا بين الأشجار!

بعد قليل، تهادى إلى مسمعي صرخات، عميقة، غريبة، قادمة من حيث اختفى، تساءلت مرتعبًا: **"هل هو بخير؟ هل هاجمه أحد؟"**

ركضت نحو الصوت، لا بدافع البطولة، فتلك الصرخات لم تكن عادية أبدًا، اقتربت، حيث كان هناك..

يذرع الأرض جيئة وذهابًا، يصرخ، يلعن، يسب، يتمزق، ينظر إلى السماء ويصرخ بأعلى صوته:

"هيك بدك يا الله؟

حِلّوا عن ربي...

يلعن...

طلعوا من راسي"

تسمّرت مكاني، ناديت مرتجفًا:

-زياد...

نظر بشراسة، وأشار بيده أن أبتعد، وعاد ليصرخ من جديد!

رجعت لأجلس خلف المقود، وضعت قدمي على البنزين ويدي على ناقل السرعة، دقات قلبي كانت تقول لي:

اهرب الآن، دعه وشأنه، لا طاقة لك بما ترى وتسمع..

لم أفهم شيئًا من صراخه، إلا أنني شعرت بكل شيء!

حاصرتني دمعة مخنوقة.. **هل أنا أبكي؟ لماذا؟**
جلست على حافة السيارة الحديدية، وضعت يديَّ على وجهي، وبصرخة مكتومة توجهت إلى السماء:
يا الله، ألهمني الصواب...

سيجارة هاربة

بعد ربع ساعة، وجدني ملقىً على حافة السيارة، قال ببرود:
- وين المناقيش؟ جعنا.. ها، ثم ضحك..
- كُل أنت، أنا ما قادر آكل..
- تعال كول، رح يبردوا... تعال!
- خلص، أنت كول، يلا جاييك..
ماذا ينبغي أن أقول؟
أثناء إصلاحي لجلستي خلف المقود، كان قد أنهى طعامه، آخر اللقمات مضغها قليلاً، ثم ابتلعها، وبيده الأخرى زجاجة عصير شربها دفعة واحدة، ليبدأ البحث عن علبة دخانه، التي وجدت مكانها أمام ناقل الحركة، ملقاة هناك بازدراء، وبالكثير من الخوف!
كانت تتدحرج بعيدًا، كلما مدّ يده، وكأنها تعرفه في ثورته، وتعرفه حين ينفث الغضب بدل الدخان!
هل علبة دخانه تخاف منه، أيضًا؟
حاولت أن آكل قليلًا، فلم أستطع، لففتها بالورقة المحيطة بها، وتركتها في الكيس، وأخذت زجاجة العصير..
ودون تفكير، مددت يدي إلى تلك العلبة الكسولة، سألته:
- معلش اشرب وحدة؟

- ولو..

أقلبها بين أصابعي، لا أعرف من أين أبدأ، فقال بعد أن رأى حالي:

- مدخن من قبل؟

أجبته بابتسامة كسولة:

- إنها المرة الأولى.. ثم قلت له:

- معلش تشغلي وحدة؟

سكت قليلاً، وأشار بيده التي يرتدي بها كفّه الصوفي الأسود:

- جرب... جرب!

نظرت إليها، شممتها، حاولت إشعالها خارج فمي، فلم أفلح، وضعتها في فمي كما يفعل الناس عادة، قدحة، قدحتان و**اشتعلت!**

مع أول سحبة منها، دخلتُ في دوامة من الكحة الخانقة، إلا أنني كنت مصراً على المتابعة.

شربت شيئاً من العصير، نظرتُ إليها بحزن، لا أدري سببه، وتابعت تدخيني..

مع السحبة الثانية بدأت أسيطر عليها، أما الثالثة فكانت بداية الدوار، حينها، شعرت برغبة كبيرة بالاسترخاء..

عدّلت وضعية المقعد إلى الخلف، لأرتاح من عبء الأفكار التي نزلت علي، وأيضًا لأني خشيت أن يراني أحد وأنا أدخن!

لا أدري ما سبب الخوف الذي تسلل إلى داخلي مع أنني رجل بالغ، ولدي حياتي الخاصة!

لعله شعوري الداخلي **بأنني قدوة لغيري من الشباب**، ويجب عليَّ الالتزام بالأوامر التي أحذّر الناس من اقترافها..

ها أنا الآن واقع فيها تماماً..
وأشعر برغبة عارمة بالتِهام سيجارة أخرى!

انزياح شمسي

لم ألبث أن انفصلت عن سيجارتي، ودخلت في دوامة من الاكتئاب، شققتها بسؤالي:
- ما الذي يحصل معك، يا زياد؟
- لم يجب..
- أخبرني يا زياد، دعني أساعدك؟
كان هو الآخر، قد أرخى مقعده على وضعية النوم، ناديته:
- زياد؟ زياد؟
أجاب دون أن يفتح عينيه، بصوت مبحوح:
- إي..
لم أعد السؤال، لأنه كان ينفث شخيره بعنف، كـ تنين أنهى غازه الداخلي، وبدأ بشحنه ليعود إلى ثورته من جديد!
أنهيت سيجارتي، وضعت يدي على مسافة قريبة من فمي، أشمه، شممت ملابسي، كان كل شيء ملوّثًا بتلك الرائحة الخانقة!
سحبت سيجارة أخرى، مستغلاً فرصة غطيطه، وأن الناس لم يستقيظوا بعد، قلت في نفسي: **"ستكون الأخيرة، يجب أن لا تتحوّل هذه السجائر الثلاث التي دخنتها، إلى عادة مستمرة!"**
بدأت الشمس بالانزياح نحونا، بأشعتها الخريفية، الناصعة، كانت الوحيدة التي ترصد ما أفعله، في عتمة الحواس، وهناك شخص آخر، بدأ يتحرك، بعد أن أزعجته أشعتها، قال بصوت

عازم:

- امشي، امشي خلينا نروح لغير مكان..

بقيت ساكنًا، أدخن سيجارتي الثالثة، فقال بعين نصف مغمضة:

- شو لساتك عم ادخن؟

- إي، لساتني عم دخن..

في تلك اللحظة، كانت ملامح الشر تتشكّل على وجهي
لم أدرِ حينها، إن كانت من أثر التدخين، أم من أثر تلك الفكرة التي تغلّبت على جميع هواجسي:

" سأساعده، مهما حصل!"

القفص

- أين ستضعهم؟

- لا تقلق يا فريد، سأدق مسمارًا صغيرًا قرب النافذة، ستشعر هناك بأنها لم تبتعد كثيرًا عن السماء..

- قفص..

تتردّد في صدى أذني، وتثير الخوف في قلبي، إنها مرادفة لكلمات مثل: خوف، وحيد، متعب، مكتئب، صراخ، بكاء ليلي**!**

أفقت من شرودي على صوت أنور:

- هل لديك شيء لأضرب به المسمار؟

- تهمل قليلاً، هذه الأيام أغيب عن البيت، وهذه العصافير الجميلة تحتاج إلى عناية..

- لن يكون الأمر متعبًا، كل ثلاثة أيام فقط، وأنا سأزورك دائمًا، لا أستطيع وضعهم مع أمي التي لديها حساسية من ريش العصافير، ولا أبي الكبير، فلا يطيق سماع زقزقتهم الدائمة..

- بم ستفيدك إذن؟ إن كنت لن تراها إلا كل ثلاثة أيام؟

- ماذا بك يا فريد؟ هل أنت متضايق من أمر ما؟

لم ينتظر جوابي، تابع كلامه:

- لن أزعجك بهم. ولكن أخبرني ما الذي يحصل معك؟ أنت لستَ فريد الذي أعرف..

-هل تعلم بمن التقيت اليوم؟

- من؟

- زياد...

- ذلك الشاب الـ...
- نعم، إنه هو..
- هل طلب منك أن توصله إلى البيت مرة أخرى؟
- كنت عائدًا من بيت أهلي كما العادة، والتقيت به، وذهبنا لتناول الإفطار معًا..
- ثم، ما الذي حصل؟
- قل: ما الذي لم يحصل!
- هذه النبرة تخيفني..

نزوة.. واستحياء

سأعد بعض القهوة ونكمل حديثنا..
- لا لا اجلس، أو لنذهب معا الى المطبخ..
-عندما التقيت به، كان نشيطًا، مرحًا في غاية السعادة، كنا نتحدث عن تلك المذيعة التي يحبها، وأنني سأذهب معه، لأتحدث معها من أجله..
- وهل ستفعل؟
- كنت أفكر في ذلك، ولكنه سبقني وذهب إليها..
- حقا!
- وأخبرها بأنه يحبها..
- هذا الزياد شجاع جدًا..
- نعم، أو، لا أدري بالضبط، على العموم، قالت له: بأنها لا تريد الزواج في الوقت الحالي، فألحَّ عليها، فما كان منها إلا أن أخبرت الأمن التابع للإذاعة..
- هذا أمر طبيعي..

- أجبروه على أن يمضي تعهدًا بعدم التعرّض لها مجددًا.
- يبدو أنه أغضبهم كثيرًا..
- كان يخبرني تلك القصة، وكأنها حصلت مع شخص آخر!
لا أدري يا أنور، أحيانًا أنظر إليه كرجل معتوه، وأحيانًا أراه كجبل شامخ مليء بالعنفوان، وأحيانًا، لا أعرف ماذا أقول!
- مثل ماذا؟
- تعال لنجلس في الصالون..
- إذن..
- انطلقنا اليوم باتجاه وادي الشريعة، بعد أن اشترينا المناقيش، وصادف أن التقى هناك بأحد معارفه، فسلّم عليه، ثم تحدّثا قليلًا. عندما عاد، كان حاله مختلفًا عما التقيته به في الصباح..
- كيف؟
- في البداية ظننت بأنه جائع، ولكن عندما وصلنا، خرج من السيارة متعجلاً، قلت في نفسي: لعله يريد أن يتبول..
أثناء غيابه، سمعت صرخات عالية، فذهبت لأستكشف الأمر، فوجدته يصرخ مع نفسه!
- مع نفسه؟
يضيف ضاحكًا:
- ألم أقل لك يافريد، إنه مسحور أو يتعاطى؟
- هل تعتقد بأنه يتعاطى؟ أنا متأكد من أنه ليس كذلك، على الأقل في الوقت الذي كان فيه معي..
يتابع ضحكه:
- أنا أضحك عليك، لأنك تضع نفسك في مواقف مريبة..

أجبته واضعًا كوب القهوة على الطاولة:

- معك حق، أعطني سيجارة؟

- سيجارة؟ يضحك، ساخرًا:

- ألم أقل لك أنك لست فريد الذي أعرفه..

- لقد دخّنت اليوم ثلاث سجائر!

- تطوّر مفاجئ، إنها البداية فقط، تفضّل سيجارتك..

أخذتها، أشمها وأتفحصها كأنها المرة الأولى:

- حسنًا، إنها الرابعة لهذا اليوم، أعطني قدّاحة..

- تفضل... يتدارك:

- آه عفواً، تفضل يا أستاذ فريد!

غير آبهٍ بتليمحاته، تابعت:

- لأول مرة في حياتي، أرى رجلاً يصرخ ويلعن ويشتم بهذه الطريقة، لا أدري لمن يحمل في قلبه كل هذا الألم، هل هو غاضب من الله؟

- هممم!

- كان ينظر إلى السماء، يشير إليها، يركلُ الأحجار برجليه، كأنها كرة من الألم، لم يكن يحطم شيئًا سوى نفسه... لقد حطمني أيضًا!

- فريد.. لا، لا شيء.. أكمل!

- ثم، وكأن شيئًا لم يكن، عاد، أكل مناقيشه، وغطّ في نوم عميق، لأكثر من نصف ساعة، ثم غادرنا..

- لا أحسدك على هذا الموقف، أنت في صحبة رجل مجنون، لا تدري متى ينفجر!

- لم يقلقني هذا الأمر..

- حقا؟
- لقد بدا لي رجلا لطيفًا، لا يمكن أن تصفه بأنه مجنون، إنه.. لا أدري كيف أصفه!
- ألم تسأله عن السبب الذي أوصله إلى تلك الحالة؟
- لم يجب، وقد تحوّل مزاجه فجأة إلى المرح والمشاكسة، بعدها بقليل عاد متجهّمًا، ثم عاد ليحدثني عن المسكة!
- المسكة؟!
- ألا تتذكر؟ التي تتحكم بالعالم، وتمنع الناس من النوم، بزعمه، أن أمه التي تسيطر عليها، وبسببها لا ينام ولا يعمل ولا يتزوج!
يضحك ساخرًا:
- ومن سترضى برجل مثله، وماذا سيعمل!؟
- إنه متعدد المهارات، ولقد كان يعمل سائق بولمان..
- لو علمت أنه سيقود بي إلى دمشق أو إلى حلب، لغادرت من فوري تلك الرحلة!
- لقد عمل هناك لسبع سنوات، وكان لديه سيارة تكسي، يعمل بها في وقت عطلته وفراغه، كما أنه مؤخرًا بدأ العمل في توصيل الملابس من معمل أخيه، إلى السوق..
- وأنت تصدقه في كل ما يقول؟
- بالتأكيد، لأن الذي أخبرني بذلك: أمه!
- وماذا ستفعل الآن؟
- كنت لا أدري، ولكن أنا الآن عازم على مساعدته!
- نعم.. ساعده أيها الأحمق المهووس..
- لا أستطيع أن أتركه، إنني غارق في بحر قصصه..

إنه من الأشخاص الذين يعيشون بيننا، بل، وربما نصادف الكثير منهم أثناء سيرنا، دون أن نلتفت إليهم، مع أننا من الصحافة..على الأقل لهم حق الكلمة، لهم كل الحق في أن نستمع إليهم!

- لا أدري يا فريد، ولكنني لا أحب التدخل في حياة أحد، ليس لأنه لا يعنيني، ولكن هذا الطريق مليء بالشواخص واللافتات الخاطئة والمحرّمة، وها أنت اليوم على مشارف الإدمان على التدخين، ولا أدري أين يحط بك هذا التيار!

- نيتي أن أساعدهم، والله أعلم بالنوايا..

- تساعدهم؟ هل يوجد غير زياد؟

أضحك:

- هل نسيت خالد وأبو غالب؟

يقف منتصبًا مرتجفًا:

- هذه القصص تخيفني.. سأهرب الآن! يستدرك مشيرًا إلى القفص:

- ولاتنسى، أثناء اعتناءك بغيرك، أن تعتني بضيوفك المساكين..

يلاعبهم قليلاً، فينتفض الطائران الأصفران وجلًا:

- كم هما جميلان!

- انتظر، قبل أن ترحل!

- ماذا؟

على استحياء قلتُ له:

- أعطني سيجارة!

١٣

باب الحقيقة

سادة..

لا بد أن أزورهم..
هممت بالاتصال، ثم نظرت إلى الهاتف لحظة، ضممته إلى جيبي: سأزورهم دون موعد، وأشتري في طريقي علبة شوكولاتة، كما هي العادة عندنا في زيارة المريض.
كان الجو أقرب منه إلى الليل، بنسمات خريفية رائقة، يثلثها عندليب حماة، **نجيب السراج**، صففت السيارة قريباً من **الكورنيش**، وتابعت طريقي سيراً، أنظر إلى الأبنية القديمة المحيطة بالمكان، إنها أشبه بالتراث القديم، أتساءل مع نفسي: **أيمكنني العيش هنا؟** ربما، فلكل شيء إيجابياته وسلبياته..
آتي اليوم بملء إرادتي، فأرى على يميني الماركت التي يبيع فيها والده، وهنا صديق والده، وتلك الحفرة في منتصف الطريق، أتجاوزها، متعلِّمًا من زياراتي السابقة، لقد أصبحت جزءًا من هذا المكان!
بدت لي **جدته** الراكدة في فناء الدار مخيفة لوهلة، سلمت، ودون أن أنتظر ردها صعدت، وقفت في منتصف الدرجين، وصرخت:
- خالد.. خالد!
ردت أمه:
- مين؟
ثم نظرت من البرندة المطلة:
- أهلين أستاذ، تفضل، يلا خالد شوي، وبيجي، راح يجيب غراض للبيت.

أجبتها محرجاً:
- يلا، مو مشكلة، رح انتظره بالطريق..
ردّت بإصرار:
- والله لتفوت، إنت متل أخي، والبيت بيتك!
سكتُّ، كان لابد من الإجابة:
- والله ما بدي أحرجكم، خلص بنتظر برا.
قالت بإلحاح أشد:
- بدك تزعلني منك أستاذ؟ والله لتفوت..
- يعني ما بيطول ليرجع؟
- لا هو عالطريق، قبل شوي حكى معي..
صعدت متردداً، مع صراخها وإلحاحها، قلت في نفسي: **أدخل دون أن يشعر أحد.. أفضل من أن أدخل، و قد علم الجميع بأني قد دخلت!**
على استحياء قدمت لها الهدية، وعلى استحياء قبلتها:
- يا عيب الشوم ليش معذب حالك..
- الحمد لله على سلامة خالد، ما في شي من واجبكم، خالد أخي الصغير، وأتمنى له الخير دائمًا..
- والله خالد كتير بحبك، على طول بيحكي عنك بالخير، الله ينور قلبك ودربك أستاذ.
ثم أردفت:
- شو بتحب تشرب؟
- الله يسلمك، ما بدي عذبك..
- لا شو عذاب، رح ساويلك لقمة تتعشى بينما يجي خالد..
- لا لا، متعشي.. خلص بشرب قهوة.

- معناها، منشرب قهوة هلئ، ومنتعشى بس يجي خالد..
ثم تابعت:
- شلون قهوتك أستاذ؟
- سادة!

باب مغلقٌ.. ودرج!

أثناء غيابها في المطبخ، كنت أراقب تفاصيل المكان: إنها برندة، تم التعديل عليها لتصبح مضافة خارجية تصلح للجلسات المسائية.. من تلك الفسحة يتفرع ثلاثة أبواب: أحدها كان مغلقًا، على عكس البابين الآخرين المطّلين على الصالون والمطبخ.
الليل يخيّم بهدوء، ألاحظه من تلك الفرجة على يساري، التي يغطيها شادرٍ ثخين، تحركه هبات الهواء فتظهر الأبنية المحيطة بالبيت..
قرب الفرجة يصعد درج حجري إلى السطح..
أستنطق المكان بعين الفاحص: **أهنا حصلت تلك القبلة؟**
عادت، وبيدها صينية بها ركوة كبيرة مليئة بالقهوة، وفنجانان، ومنفضدة للسجائر، وقد شعرت لأوّل مرة في حياتي بالحماس لرؤية المنفضدة.. ولكن لا، لن أفعلها، وقد عزمت على أن لا أتورّط أكثر، على الأقل أمام الناس!
بيدها الواثقة، تصبّ القهوة وهي تتحدث:
- طمني عنك، كيف العيلة؟ ما لقيت شي عروس؟
- الحمد لله، الجميع بخير، إن شاء الله قريبًا..
- بتستاهل كل الخير..

كان في صوتها حنان عارم، على الرغم من تلك البحة الغليظة المرافقة له.. ولا أدري، إن كانت من أثر التدخين؟ أم من آثار الكتمان؟

الباشا

وضعتِ الفنجان الممتلئ أمامي، ثم أتبعته بكأس مليء بالماء، وقالت بعد أن ناولتني سيجارة، قائلة:

- ما بتدخّن أستاذ؟

مرتبكًا:

- لا، ما بدخن!

كنت على وشك أخذها، لو أنها ألحّت قليلاً، كإلحاحها عليّ في الصعود إلى البيت، لكنها تراجعت، قائلة:

- الله يبعده عنك..

قلت مبتسمًا:

- أجمعين

أثناء إشعالها سيجارتها، لم أستطيع تفسير شعوري في تلك اللحظة.. ما بين ارتياح وارتياب، ما بين سعادة وقلق!

أريد أن أفتح معها أي حديث، إلا أن هناك حديثًا آخر يشدّني، أيقظني صوتها:

- شلونو أبو غالب؟ عم تشوفو؟

أجبتها مراوغًا:

- مرات منلتقي بالمقهى...

- ما في منو أبو غالب، بلا صغرة منك، بس نحن جيران وأهل من زمان..

استفهمت منها :

- أبو غالب بيته قريب من هون؟

- بنفس هاد الطريق، لقدّام شوي، الباب الأسود على اليسار، أول طابق ساكن فيه جدهم، بيقولوا الباشا..

- الباشا؟

- إي، الله يجيرنا!

ضحكتُ ثم قلت:

- ليش، الله يجيركم؟

- له مواقف جيّدة وسيئة، بس الأسوأ إنو بيتعاطى كتير، وعنده عصابة كبيرة تتاجر بالممنوعات، تحت حماية الدولة ... الله الحامي!

ثم تابعت:

- وبالطابق التاني عايش عيلة عمّه، وبالطابق التالت عيلة أبو غالب..

وأضافت بِحنو:

- ما في منو أبو غالب، ولا في أطيب من قلبه!

قبلة.. ومابعدها

بادرت مستفهمًا:

- لقد أخبرني أبو غالب بالقصة التي حصلت بينكم..

ارتبكتْ قليلاً، ثم تماسكت وقالت:

- الله على الظالم.

تابعتُ، بحذر:

- في الحقيقة، أخبرني عن كل شي، حتى ما لا يعلمه باقي

الناس..

ارتبكتْ أكثر، إلا أن عفافها لم يسمح لها بالانسحاب، قالت بحزن:

- أقسم بالله العظيم، اللي صار بينّا هو متل أم وابنها!

ثم سقطت من عينيها دمعة حارّة:

- بعرفه من لما كان صغير، ولما كبر، صار يجي مع خالد، يسهروا عنّا عالسطح، وأنا دائماً بطلع لعندهم، منتساير ومنحكي، ومتل ما بتعرف، كل الحارة بتناديني (فطوم) وهو دائماً بيناديني هيك، ما بزعل أبداً، بالعكس، بعتبره متل ولادي والله، كان يحكيلي شو بيصير معاه على طول، وبنصحه، وبيسمع مني..

- إي..

- في مرَّة كانوا سهرانين، وطلعت أخدتلهم بوشار، حكينا شوي ونزلت، كان أبو غالب وضعه مو طبيعي، أنا شكّيت انهم عم يتعاطوا شي، بس ما حبيت أحرجه، لأن الحشيش صاير منتشر كتير، خاصة بهالمنطقة عنّا..

- هذا صحيح..

- بعد شوي، نزل خالد، وجهه أصفر، سألتو: شو فيك؟ قال: ما في شي، بدي فوت عالحمّام..

- نعم...

- طلعت لشوف شو القصة، كان أبو غالب قاعد لوحده، وعم يطلع بالسما، ناديته، وقربت عليه، فجأة وقف، وقال: **" لك إنتي أحلى وحدة بالعالم، يا فطوم"**

تجاهلتُ النبرة اللي حكى فيها معي، سألته:

- فيك شي يا أحمد؟ حدا مضايقك؟، أجابني: لا ما فيني شي..
أثناء حديثها معي، كان صوت خالد يقترب من باب البيت، فخفضت صوتها وقالت:
- منحكي بعدين...

ملك العادي

كان يصعد الدرج، صارخًا:
- إمي... إمي!
ردّت عليه:
- ليكني هون، طلاع..
- تعي خدي الغراض، شو عاملة عشا؟ مخوّر..
- يلا طلاع، عنا الأستاذ فريد، اجا يشق عليك!
أسمعُ صوت أقدامه على الدرج، وما أن وصل رأسه قبل قدميه، انفجر بضحكته المجنونة:
- أهلين وسهلين، بالأستاذ.. نورتنا!
أمه واقفة أمامه، تأخذ الأكياس السوداء، همس لها، فردت عليه بهمس أعنف، رحبتُ به:
- الحمد لله على السلامة، ما شاء الله، متل الحصان!
عانقني، وهو يضحك قائلاً:
- لك أي حصان يا أستاذ؟ قول نمر، قول أسد، حصان بس!
- خلص متل ما بدك... أحلى أسد!
لم تفارقه الضحكة أثناء جلوسه، ثم نادى على أمه:
- إمي، جيبيلي فنجان..
أحضرتْهُ، واعتذرت لتعدّ العشاء.

كان خالد صامتًا، مشغولًا بدخانه المتسارع، لم يفارقه لهوث الصعود، قلت له ناصحًا:

- طول بالك، خود نفس، بعدين دخّن..

أجابني بثقة، غير آبه بكلامي:

- عادي أستاذ... عادي!

إنه ملك الـ"عادي" هذه المرة الأولى التي أرى إنسانًا ينطق **"العادي"** بعدّة اتجاهات:

فأحيانًا تعني: نعم، وأحيانًا: لا ، وفي أغلب الأحيان تعني: ربما... ولقد كان جاهزًا لتنفيذ كل ما تقتضيه هذه الكلمة من معنى..

أنظرُ إليه من خلال دخانه الكثيف وشروده: أشقر الشعر، عيناه خضراوان تشعّان بالألق، ملامحه متناسقة، معتدل الجسم، قوي البنية، كل شيءٍ فيه يصل حدّ الكمال، سوى ضحكته، التي تُبدي أسنانه الصفراء المتكسّرة، ومع شدة وقعها، تشك بأنها صدرت من ذلك الوجه الجميل!

بعد برهة، صار يحوم بين المطبخ والمكان الذي كنا جالسين فيه، كل مرة يرجع، وفمه محشو ببعض اللقمات.. يبتسم مردداً:

- على راسي أستاذ..

ثم يعاود هجمته إلى المطبخ، مع صراخ أمه الخافت:

- روح اقعد مع الأستاذ، عيب عليك!

يستجيب لها، فيجلس معي، وقد أشرع سيجارة جديدة!

سألته عن أبو غالب، فقال أنه بخير، ولم يره بعد زيارته الأخيرة للمشفى..

فرصة مناسبة

بعد ربع ساعة، امتدّت أمام ناظري سفرة كبيرة، من شتى أصناف الطعام، ثم تتالى الخبز والعصير..

- يلا تفضلوا، لا تستحي أستاذ، البيت بيتك، ما في شي من واجبك..

ناولني الخبز، وقد فتحت رائحة الطعام شهيتي لأقصى حد، شعرت كأني في بيتي..

لقيمات سريعة، وانتهى خالد، قال واقفًا:

- كمل أكلك أستاذ، أنا شبعت الحمد لله، دايمة، الله يعطيك العافية حبيبتي..

انصرف إلى المطبخ يغسل يديه، وعاد متجهًا صوب الدرج:

- أنا طالع عالسطح، ناطرك فوق نشرب كاسة شاي، بعد إذنك، إمي!

ألأنه أمامي، كان يتظاهر بهذا الكم الهائل من التهذيب!

ولكن لا، فعندما نظرت إلى أمه، بدت لي أنها معتادة على مثل هذه الإشادات.. أعجبني هذا الموقف العالي من المحبة المتبادلة بينهما، وكأنهما رفاق في معركة واحدة، ولهما تاريخ مشترك من النضال في هذا البيت شبه المتهالك!

غيابه، أتاح لنا الفرصة لنكمل الحديث، بادرتني بصوتها المبحوح، وبأقصى درجات الحذر:

- إي أستاذ..

أجبتها، بالحذر نفسه:

- لدي سؤال يقلقني، ولا أعرف حقيقته!

- ما هو؟

- هل رآكم خالد؟ أو أي أحد آخر؟

أجابت بوضوح وثقة:

- أبو غالب متل ابني، وكانت نفسيته تعبانة، قرب مني، وحضّني، يعني ما قدرت ابتعد أو حتى أرفض!

ثم توقفت، وقد أخذتها غصة، تحاول بلعها، فاستدركتُ عنها:

- يعني، كل شي صار، هو حقيقي، متل ما قالي أبو غالب؟

أجابت، بتنهيدة، وأنا أراقب ارتعاشة يدها:

- أقسم بالله، بحياة ولادي، ما تكررت أبدًا، وكتير تفاجأت إنو عمل هيك، بس متل ما قلتلك، يمكن ما كان صاحي بسبب الحشيش!

- خالد ما انتبه على شي؟

- لا، بوقتها خالد نزل على التواليت..

- بعتذر لأني عم اسألك بهي الطريقة، أنا ما عم حقق معك، ولكن، أبو غالب حكى لي هي التفاصيل، وبصراحة، أنا خفت يكون خالد بيعرف شي عن الموضوع، وبصراحة أكتر، كنت مفكر أبو غالب عم يكذب ومألف هي القصة!

- أبو غالب أبدًا ما بيكذب، ما في أطيب من قلبه، بس يمكن كان عم يعاني بسبب أهله، أبوه كتير قاسي معاه، وجدّه الباشا كان قاسي مع أبوه ولهلّئ. الله يلعن الحشيش وساعته!

كلماتها مثل العلاج، ليس لأبو غالب فقط، بل لتلك الأسئلة التي كانت تقلق وجداني..

تلك العلاقة لم تكن عابرة، ولم تكن نزوة، بل كانت رحلة نفسية عميقة بين مرآتين معكوسَتين، لا إلى الخارج، بل إلى

الداخل، حيث يرى كلّ منهما ذاته، ويُلقي ما يرى من ظلال أعماقه إلى الخارج، ليتلقّاها الآخر، بما يراه في نفسه، فصادفَ أن التقت رؤيتهما بحبال رفيعة، صَنَعتْ حبًّا على شكل قوس فرح، ما لبث أن اختفى عند أول سطوع لشمس الحقيقة!

سيجارة على السطح..

صعدتُ، والأفكار تتناسل في عقلي كشلّال هادئ، كل فكرة تقودني لأخرى، وكأنها أحجية قد اكتملت أركانها، وكانت جائزة الانتصار: سيجارة، طلبتها على استحياء من خالد، الذي لم يتفاجأ من طلبي، أشعلتها، بعد أن تأكدت من عدم صعود أم خالد مرة أخرى.

وعدتُ نفسي أن لا أعود، لكن يبدو أن الوعود تنكسر بسهولة، **حين يكون الدخان أكثر صدقًا من الذاكرة!**

وكما يقال: لا يوجد شيء أطيب من السيجارة مع كأس الشاي، بعد تناول وجبة دسمة من الطعام اللذيذ..

نظرتُ إلى خالد، الذي كان على وشك النوم، ونظرت إلى ساعتي، قلت له على عجل:

- يلا خالد أنا رح أمشي، تأخر الوقت..

- طوّل بالك.. قاعدين!

- بدي أمشي، بكرا عندي دوام..

- انتظر شوي، رايح معك..

- وين بدك تروح؟ أنا رايح عالبيت يا خالد!

- مو مشكلة، بطلع معك.. وصلني لهون، وأشار لمكانٍ ما

قريب، وافقتُه، فوقف مترنحاً، ثم انطلق بخطى ثابتة:

- يلا أستاذ..

يصرخ من أعلى الدرج:

- يا الله يا الله... تفضّل!

نزلتُ، حيث كانت أمه جالسة في تلك الفُسحة تدخّن، انتفضتْ واقفة:

- أمانة تعيدها أستاذ، امتى ما حبيت، البيت بيتك!

- الله يسلمك، أكيد رح زوركم دايماً.

بدا الحي ساكناً، هادئاً في جُنح الليل، كأنه رمادٌ منطفئ، يُخفي الكثير من القصص التي لا تُروى!

البرناوي

في السيارة، انتظرتُ منه أن يُشير إلى المكان الذي يقصده، ولكنه قال ببساطة:

- امشِ أستاذ..

سألته، مستفسرًا:

- لوين؟

أجاب دون أن ينظر إليّ:

- عادي، وين ما بدك!

(عادي) ...مرّة أُخرى، ضحكت قائلًا:

- شو يعني عادي؟

أجاب بنبرة تهكّمية:

- وين ما بدك... إنتَ وين رايح خدني معك!

- أنا طالع لعند أهلي شوي، رح وصلّك عالبرناوي..

تحرّكنا صعوداً باتجاه البرناوي، أدرتُ الراديو، كانت أم كلثوم تصدح بأغنيتها الجميلة: **أغداً ألقاك، وقد وصلت إلى المقطع الذي يقول:**

"...هذه الدنيا كتاب، أنت فيه الفكر"

صرختُ متأثراً:

- الله! ما أجمل أم كلثوم، وما أجمل كلماتها!

لم يرد، اكتفى بالنظر إليّ، ثم عاد إلى شروده..

وصلنا إلى البرناوي، قلت له:

- أراك على خير، سأتركك هنا..

قال، بنبرة هادئة:

- خليك معي شوي، ما جايِة على بالي شوف حدا..

- مضطر امشي، بس رح أوقف معك خمس دقايق..

- عادي...

لم أتمالك نفسي هذه المرّة، قلت له بشكل جدّي:

- ما سرّ هذه العادي؟

- شو فيها؟

- تكررها دائماً... شو يعني (عادي)؟ إي، لاء؟

أجاب ضاحكاً:

-عادي...

أجبته، محتدًا:

- يعني ما مشكلة، ما عندك قرار، ما عندك رأي!؟

أجاب مستهتراً:

- كلو عادي..

لم أتابع معه هذا الحديث **"العادي"**، والذي لم أستطع الوصول به، إلى أي مكان **غير عادي!**

أرسلتُ نظري، عبر المكان، الذي كان مكتظًا بالناس العاديين، والإطلالة الممتدة إلى **جبل زين العابدين**، حيث ترى مآذن الجوامع الكثيرة، والإضاءات الخافتة التي تُضفي رونقًا ساحرًا، على تلك المدينة التي تحتضن القلعة، بهيبتها وجمالها الساحر العادي!

ابتسمتُ بيني وبين نفسي، مع هذه المحاكاة المضحكة لعقلية خالد، الذي كان بجانبي مسترخيًا، ففتحتُ حديثًا لمنعه من النوم:

- أمك ما شاء الله عنها رائعة، وهي تحبك جدًا!

-عادي أستاذ..

تماسكت:

- إلى متى ستبقى مع هذه (العادي)؟ أنت ليش هيك؟

- شلون يعني؟

- يعني مثلًا شو هدفك بالحياة؟ شو حابب تصير؟ لوين حابب توصل؟ ولا... (عادي) وخَلَص؟

أجاب ضاحكًا:

- والله عادي أستاذ..

بجديّة:

- لا تقل لي (عادي)، يجب أن يصير كل شيء في حياتك غير عادي.. انتهى وقت العادي!

وكأنه بدأ يهتمّ:

- شلون يعني؟

- يجب أن تبحث عن عمل يفيدك، تضع خطة لأهدافك، مثلًا:

اليوم سأفعل كذا، وغدًا سأفعل كذا.. وهكذا.

لحظة صامتة، ثم تابعت:

- من يهمك أكثر شيء في هذه الحياة؟

- أمي..

- بترضى أمك تشوفك بهي الحالة؟

- ليش؟ شو فيها حالتي؟

- ما شايف حالك؟ يوم بالمشفى، ويوم غارق في الحشيش..

أجاب ساخرًا:

- عادي!

مرة أخرى... قلت غاضبًا:

- يا أخي، اطلع من هذه (العادي).. ثم نظرت حولي، وكأني أبحث عن شيء أستند إليه:

- انظر إلى تلك الشجرة... هل ترى كم هي جميلة؟

- إي...

- هذه الشجرة، ستبقى جميلة بوجود فلاح يدير شؤونها من سقاية وعناية، وكذلك نفسك، جسدك، روحك، عقلك، بحاجة إلى العناية والرعاية..

كاد أن يقول "عادي"... فأوقفته:

- خالد، أنت تدمّر حياتك، اترك كل شيء يؤذيك!

للحظة شعر بجدّية الموقف فقال:

- شلون يعني؟ شو لازم أعمل؟

- أول الشي، لازم توقّف التعاطي... بتقدر؟

- ما بعرف!

- بتعرف إنو الحشيش حرام؟

- بس مو حرام، يعني متلو متل الدخان..
- مين قالك هاد الكلام؟ ما في حدا بيتعاطى وبيعيش حياة سعيدة..
يضحك:
- لا، غلط هاد الكلام، هي أنا سعيد..
- وهل أنت راضٍ عن حياتك السعيدة هذه!
يصمت، فأتابع:
- لك إذا مو مشانك، وأنت كل شيء عندك (عادي) كرمال أمك، يلي أنت عندها شي مو عادي!
أحيانًا الإنسان بيضحي كرمال الناس اللي بيحبهم، وبيخاف على زعلهم، بيترك كل شي حتى ما يضايقهم أو يزعلهم..
ما شفت أمك شلون حايرة بالمشفى، وأنت ملقّح على السرير الأبيض.. بأي لحظة ممكن تفقد حياتك!

شجرة.. ومعصية

لحظات صمته كانت أطول هذه المرّة، بشكل لا إرادي، لم أستطع التوقف عن الكلام:
- هل تعرف لماذا خلقنا الله؟
- منشان نعبده..
- خلقنا لشيء أهم، أتعرف قصة آدم وحواء؟
- كانوا بالجنة ونزلوا على الارض!
- رح احكيلك القصة بطريقة مختلفة:
لما خلق الله آدم وحواء، قال له: (اسكن الجنة أنت وزوجك)، وأعطاه الخيار في الأكل من كل ثمارها، ما عدا هذه الشجرة،

قال له: لا تقترب منها!

- إي..

- آدم وحواء لم يتقربا من الشجرة لفترة طويلة...

قاطَعني:

- إجا الشيطان ووسوس لهما، وأكلوا من الشجرة ونزلوا على الأرض!

- بالضبط... ولكن هل تعلم ما هي فكرة الشجرة؟

- شو يعني؟

- الشجرة هنا لا تعني الفاكهة، أنها بمعنى المعصية!

الله أعطانا مثالًا حيًّا لما سيحصل معنا في الدنيا، الشجرة يا خالد، هي الزنا، والخمر، والحشيش، والسرقة، وكل ما أمرنا الله بالابتعاد عنه، وما عدا ذلك، فلك كامل الحرية..

ساد الصمت، وخالد يحدّق في الفراغ، كمن يسمع شيئًا مألوفًا للمرّة الأولى... تابعت بإشفاق:

- هل عرفت الآن معنى الشجرة، يا خالد؟

أجاب، بعد تلكؤ:

- يعني لازم نهتم بهي الشجرة حتى الناس يحبوها، وتبقى حلوة بعيون الناس..

كنت حائرًا مع نفسي: ما الذي يقوله؟ ثم تفطّنت إلى أنه يقصد الشجرة **الأولى**، فابتسمت له، وتابعت من حيث أراد:

- نعم يا خالد، يجب أن تهتم بحياتك على الأقل، من أجل تلك التي تنزف من عمرها، دون أن تطلب منك شيئًا **"غير عادي"** سوى أن تعود!

١٤

باب الجنون

حقٌ ضائع..

- أتصدق هذه القصة الجنونية، ويزداد ذهولي منك أنت يا فريد، كيف تورط نفسك بهذه المتاهات، هل أنت أحمق!
- ربما، ولكني أتبع حدسي، ولا يمكنني أن أترك كل شيء، وقد وصلت إلى هذه النقطة..
ثم سألته، ليذهب بعض غيظه:
- أتشرب قهوة؟
بنصف غضب أجاب:
- .. واحضر لي معك ماءًا ومنفضدة للسجائر.
- تعال معي، لنتحدث في المطبخ، هناك سؤال يدور في بالي، وأريدك مساعدتك..
- وما هو أيها المحقق العظيم!
- الذي ترجح عندي، بعد أن اطلعت على تلك القصاصات، أن أبا غالب مريض نفسي، ولكن الذي لا أعلمه هو توقيت مرضه؟ انظر لقد اشتريت كتابًا عن الإدمان وآثاره النفسية.. هناك قائمة كبيرة من الأمراض التي تنتج عن الادمان!
نظر إليَّ، وقال مستهزءًا:
- هذا رائع .. لقد أصبحتَ الآن طبيبًا نفسيًا!
- وما المانع!
- يا فريد، أنت تعرف حق المعرفة، أن هذه المهنة تحتاج إلى رخصة، ولا يمكنك ممارسة العلاج النفسي لمجرد قراءتك بعض الكتب!

- ومن قال أنني سأمارس العلاج النفسي!؟
- ما الذي تفعله إذن!؟
- أنا أقوم بمساعدة امرأة مظلومة، قد وضعني الله في هذه القصة، لمساعدتها على استرداد كرامتها وحقها..
- حقها.. إنها مشتركة معه في الجريمة!
- تقصد جريمة الشرف، لا، لقد تأكدت منهما، بأن الأمر لم يتعدَّ القبلة!
- وهل تصدق شابًا مدمنًا، وامرأة ساحرة!؟
- أنا أصدقه، لأنه أخبرني بتفاصيل أكثر ظلمة، ولا يوجد داعٍ ليكذب عليّ في هذه الجزئية..
- لا أعلم، ولكنك تزيد الطين بلة!
- اطمئن، لن أتدخل بشكل مباشر، ولن أسمح بعودة تلك الغراميات بينهما، ثم إن أبا غالب لديه الكثير من المشاكل الأخرى غير الفطوم..
- الفطوم!!
- هكذا يناديها..
- ياربي، ألهمني الصبر على هذا البلاء!
ثم يضيف، بلهجة ساخرة:
- فطوم، ولا يوجد جريمة شرف!
أجبته بلهجة حازمة:
- اسمع خلاصة ما توصلت إليه..
- لا تتفاجئ... اقرع الطبول!!
أبو غالب كان يعتقد في نفسه أنه نبي الله يوسف، وكان يرى في أم خالد زليخة!

- نبي الله و....؟ الآن أنت تزداد جنونًا!
- دعني أكمل.. لقد كانت تعاني من زوجها وحياته القاسية، وكان أبو غالب ملاذها الآمن!
- يعني أنت الآن حللت المعضلة!!
بالتأكيد كانت تبحث عن الحب معه!
- ليس الأمر كذلك، نعم، هي وجدتْ الحب معه، ولكن رؤيته للأمر تختلف عن رؤيتها تمامًا!
- الله أكبر، أنت تكرر الهراء نفسه!
غير مبالٍ بكلامه، تابعت تحليلي:
- وبذلك حصلت تلك القبلة بينهما على اعتبارات مختلفة، أبو غالب يرى في نفسه نبيّ الله يوسف، ومعه زليخة في أبهى حلّتها!
أما هي، فقد كانت ترى في نفسها الملاك الطاهر، التي تحاول إصلاح ما تبقى من نفسها، بإصلاح غيرها!
- إنها حقًا معجزة، يجب أن تسجلها في سجل الأنبياء الذي عادوا بعد الموت!
- سأسجلها ضمن المعجزات التي تحققت بعد وفاة نبيها!
- يجب أن تراجع طبيبًا نفسيًا في أقرب وقت!
- أكثر ما يقلقني، ولم أجد له جوابًا شافيًا..
- وما هو، أخبرني يا أرسطوطاليس!
- ما المرض النفسي الذي يعاني منه أبو غالب؟
- وهذه الكتب المصفوفة على طاولتك، ألم تجد فيها جوابًا !
- الأعراض متشابهة جدًا، فرق بسيط بين مرض وآخر، وما هي تلك الأصوات التي يسمعها!

- الأصوات!!

- انظر، لقد طلبت منه أن يسجل لي كل ما يسمعه..

كانت تحتوي على الكثير من الكتابات المتكررة، والأرقام باللغة العربية والانكليزية، إضافة إلى الكثير من الأسماء، والأوامر، صاح أنور:

-إنه سحر يا فريد، إنه سحر!

- ليس سحرًا، إنها بخط أبو غالب.

- وما يدريك، لعل الساحر يوحي له بكتابة هذه الطلسمات!

- أنا لا أؤمن بوجود السحر كما تعلم، على الأقل في عصرنا الحالي..

- آمنت بربي، ماذا ستفعل الآن!؟

- أحاول تحليل رموزها، ولم أفلح، إنها أفكار قد تخطر في بال أي إنسان عادي، يمر بالعديد من المواقف في نهاره، إلا أنها لا تستقر في عقله.

بينما تستقر في عقل أبو غالب، ويظل صداها يتردد على شكل أصوات وهلاوس!

- لم أفهم ولا كلمة مما تقوله، ما الذي تريد الوصول إليه!

- هناك احتمالان لا ثالث لهما: اضطراب الهوية التفارقي، أو الوسواس القهري..

يضرب على رأسه:

- أهلا بكم في عالم المجانين!!

فتحتُ إحدى الكتب التي أمامي:

- انظر، الآثار العامة التي يسببها التعاطي، مجموعة من الاضطرابات، ومنها ما ذكرته لك..

- ماهو بالتحديد؟ لم أفهم !

- هل تذكر، عندما أخبرتك عن الفرق بين الفصام والانفصام..

يعصر ذهنه، قائلًا:

- كان حديثنا وقتها، عن الذهان والعصاب.. أليس كذلك!

- تمامًا، الفصام الذي هو مرض ذهاني، بمعنى خلل في كيمياء المخ، بينما الانفصام مرض عصابي، بمعنى أن سببه نفسي، بسبب ظروف الحياة، التربية، العلاقة مع الأب والأم، وأيضًا: أن يكون الشخص هشًّا من الداخل، فيتأثر عندما يصادفه أية هزة اجتماعية!

- وما الرابط الآن؟

- الرابط أننا نتحدث هنا عن الانفصام، الذي سببه ما يمر به الانسان في حياته من ضغوطات، وقابليته للتأثر والمرض..

- ثم..!

- الانفصام له أشكال مختلفة، إحداها: اضطراب الهوية التفارقي، وأعتقد أن أبو غالب يعاني منه..

- لم أفهم، اشرح لي أكثر!

أمسكت بورقة فارغة، وقلم، وبدأت أرسم دوائر:

- بعض الناس، لديهم حساسية عالية، أو قابلية للمرض النفسي، أو حتى عامل وراثي، يولدون خالين من أي مرض، إلى أن تصادفهم صدمة اجتماعية، فتؤثر على سير حياتهم، فتهتز شخصياتهم الداخلية، وفي محاولة لإعادة التوازن، تقوم النفس البشرية، بابتكار آلية دفاعية، لحماية جوهرها، فإما أن تنغلق على نفسها، على شكل اكتئاب، أو حتى وسواس قهري، وإما أن تبتكر شخصية خيالية، بكامل تفاصيلها، وغالبًا ما

تكون تلك الشخصية المبتكرة، تميل إلى الكمال، ومن هنا ينشأ ما يسمى بتعدد الشخصية، أو اضطراب الهوية التفارقي..
- تعدد الشخصيات، أعتقد أنني سمعت بمثل هذا المصطلح، بل وربما شاهدت بعض الأفلام التي تتحدث عنه..
- تمامًا، أعتقد أنه قد تعرض لحوادث كثيرة في طفولته، جعلته يحمي نفسه بشكل لا إرادي، بهذه الآلية الدفاعية..
- والتعاطي..!؟
- قد زاد الجرح التهابًا، تفاعل مع مرضه الأساسي، فأصبح يرى نفسه في كل مرة، بشخصية جديدة: بويكا، النبي يوسف، هذا ما أعلمه، وآخرها المهدي المنتظر..
- المهدي المنتظر... فرد ضربة!
- لولا أنني أدركته، لكنتَ الآن أحد أتباعه!
يضحك بلا توقف، قائلًا:
- أنا على دين أبو غالب!
يتوقف فجأة، ويقول:
- هل أخبرته عن ماهية مرضه وسببه؟
- قبل ذلك، أريد استشارة بعض أصدقائي الخبيرين بهذا المجال، وربما سأجعله يزورهم أيضًا!
قال مشجعًا:
- هذا أفضل شيء تفعله يا فريد، ولتعد إلى حياتك الطبيعية..
- إنه موضوع حساس، ولا أستطيع حمله وحدي.
- هذا هو التصرف السليم.
- لا تفرح كثيرًا، سأبقى على تواصل معه، لأنني وعدته ألّا أتركه!

- بكل حال هو يعمل في المأمورية..

أضحك بخبث:

- صحيح تمامًا!

فينتبه لضحكتي، يستدرك مغتاظًا:

- تبًا لكم، لقد جعلتم من مكاني المقدس، مقرًّا لأمراضكم النفسية..

وأنت... لا أدري ماذا أقول!

أجيبه ضاحكًا:

- قل ما تشاء، يحق لك ما لا يحق لغيرك!

١٥

باب الحيرة

نقطة الصفر

وضعت الكتاب جانباً، وقد اشتعلت حواسي، وعاد النبض لروحي، وكأنني أمسك بخيط طويل، يقودني إلى نهاية رحلة عزمت فيها على السير حافي القدمين من أي فكرة مشوشة..
تتحول الأسئلة إلى إجابات منطقية، إذن:
أبو غالب يعيش حالة نفسية تُدعى تعدد الهوية التفارقي، وهي حالة نفسية.. **لا**، بل هي آلية دفاعية نفسية، تتفعل في الإنسان في مرحلة ما بعد الطفولة، عندما يمر بظروف لا يستطيع مقاومتها، فتلجأ النفس إلى تلك الحيلة، لتحميه من واقعه، باختراع واقع جديد، يتعايش معه تماماً، ويتقمصه، بشكل واحد أو أكثر..
بالاضافة إلى التعاطي، الذي ضاعف تلك الأوهام والخيالات، فجعله يتقلب بين الشخصيات، ويسمع أصوتًا غير مفهومة!
هناك احتمال كبير، أن تكون حالته مترافقة مع الوسواس القهري... ولكن يجب أن لا أتعجل في الحكم الآن.
أثناء تسجيلي لتلك الملاحظات، كنت أضع خطوطاً هنا وهناك على عجل، كمن يمسك بخيط لا يريد أن يتفلت من يديه!
والآن، خالد، الرجل العادي، لا شيء غير عادي بشأنه، ما عدا تلك الحالات البطولة التي يستطيع من خلالها أن يُحمل إلى المشفى، بسبب خلل في ماهية الرجولة!
يحتاج إلى رعاية وعناية، وكذلك سأستعين به ليوصلني إلى كل خيوط أبو غالب.
وأمه **فطوم**، مشكلتها ستحل مع الوقت، نعم، الوقت كفيل بحل

كل عسير..
وأخيرًا **زياد**، إنه الأهم، مع ماضيه العميق، لا أعتقد أن لديه جروحاً نفسية أثرت على ماهية شخصيته، وما يعانيه هو **الفصام الذهاني**، الذي لا يمكن علاجه إلا من خلال الأدوية النفسية المتخصصة، مع القليل من الدعم النفسي، وحسب ما أخبرتني به أمه، أنه رمى الأدوية الخاصة به، رافضًا العلاج..
هممم..مشكلة!
كيف يمكنني أن أقنعه بحالته، وبضرورة عودته للدواء؟
وما هي قصة **الكفّ الصوفي مقطوع الأصابع** في يده اليمنى؟
وما سر **طقوس التدخين** التي يمر بها قبل أن يشعل سيجارته؟
التغيرات الحادّة في مزاجيته؟ الصراخ، السب، الشتم؟
أيعقل أن يكون مسحورًا؟
أو قد تلبسه جني ما؟
أضحك مع نفسي: لو كان هناك ساحر حقيقي في هذا العالم، فلن يقدر على زياد.. أما الجن، فهم أضعف من أن يتلبسوه!
هبت في بالي **فكرة**، حركت ستائر الجنون في عقلي، ارتميت على ظهري نصف ممدد، والابتسامة تملؤني: متخيّلًا كيف ستصير الأمور!
آخر ما فكرت فيه هو: تلك **المسكة** المترافقة مع صعوبة النوم..
أعتقد أن الدواء سيُبطل كل هذه الترهات والهلاوس.
نظرتُ إلى الكتب المصفوفة أمامي مزهوًا، يلمع بينها عنوان: "الفصام: أسبابه، وتشخيصه، وعلاجه" بالفعل، لقد أصبح لدي **مكتبة نفسية متكاملة!**
لا أدري حقًا إن كنت أمشي في الطريق الصحيح أم لا؟ في

كلا الحالتين، لم أعد أهتم، إنها النفس الإنسانية لا تحتاج إلى كثير معرفة، كل ما تحتاجه: قلب كبير، وصبر طويل، وحب للخير، وأحب أن أصدق أن واحدًا منها، لا ينقصني.
ستكون خطوتي التالية:
التعمّق أكثر مع حياة أبو غالب العائلية.
ولا بد من زيارة أخرى لأم زياد.

زائرٌ تحت المطر!

ألقيت الأوراق، أرتب ما تبقى من فتاتٍ متطاير هنا وهناك، استعداداً للنوم..
كنتُ في غاية السعادة، وكأنني قد عثرت على كنزٍ معرفيٍ، أخيرًا.. سأتمكن من تقديم خدمةٍ صغيرة أريح بها ضميري..
على تلك المخدة، أتخيّل كيف سألتقي مع أم زياد، وبعدها مع أبو غالب، ولم تغب عن بالي أم خالد، وقصتها التعيسة..
في مسايرة لأفكاري، لأدخل دوامة النوم العميق، عندما سمعتُ طرقاً خفيفاً على الباب الخارجي!
تساءلت: هل هو أنور؟
ذهبت لأتفقد الباب، كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، من دون أن أفتح، بهدوء واستغراب سألت:
- مين؟
أجاب الصوت:
- زياد... افتح!
تأكدت من العين السحرية: كانت هيئته أشبه بأولئك المشردين، أو الهاربين من فم الموت!

رحّبت به من الباب، فقال:

- ممكن ادخل شوي؟

نظرت إلى الساعة، وقلت له محرجًا:

- ولكن يا زياد...!

- والله ما بتأخر، بس بدي أحكي معك كلمتين..

رائحته كريهة جدًا، خليط من الدخان والعرق، وماذا أيضًا..!

نظرت إلى ملابسه، التي لم تكن سوى، جاكيت مخملي طويل، يصل إلى ما فوق ركبتيه بقليل، الذي لم يعد أسودًا، بسبب اللطخات البيضاء، التي حوّلت لونه لماسحة سبورة مدرسية!

لم يرتدي تحت جاكيته المغلق أي شيء، أما بنطاله فلم ألحظ منه شيئًا سوى سواده المُغبر، يرتدي بقدميه كسرية بلا جوارب، تأكدت من ذلك، أثناء جلوسه على الكنبة، فهبّت منهما رائحة كدت أتقيأ منها، هربت إلى المطبخ، سألته:

- بتشرب قهوة؟

- لا ما بدي..

بعد تردد، قال:

- ولا قلك، ساوي، ساوي..

- رح ساوي بكل الأحوال..

كان يجلس بهدوء، عيناه مصوبتان إلى شيء ما، لكنه بالتأكيد لم يكن يراه، كمن كان ينظر داخل عقله..

دعوني أنام

جلست قربه، بعد أن وضعت معطرًا تحت أنفي:

- ما الذي يحصل هذه المرة؟

أجاب، بعد أن شرب رشفة من القهوة:
- فريد، إذا الواحد قرأ سورة الكرسي، بيروحوا كل الشياطين؟
مع ملاحظة أنه لم يعد يناديني **"أستاذ"**، أجبته مترددًا:
- بالتأكيد..
- يعني، بيروحوا أكيد..؟
- آية الكرسي تطرد الشياطين تمامًا.
- طيب، ليش ما عم يروحوا؟
- أين؟
- لما بدي نام، بقرأ سورة الكرسي، ما بيروحوا، ما عم أقدر نام، ليش برأيك؟
توقف عقلي أمام هذا الإلحاح العاطفي المستحيل، كيف أساعده على طرد شيطان من صنع خياله**!**
أسعفتني حيلة ما، كي أعبر هذا اليوم بسلام:
- لعلك لم تقرأها بشكل صحيح..
متفاجئًا من هذا الخطأ غير المحسوب:
- معقول، أنا حافظها يا زلمة!
- طيب، سمّعني.
رمى السيجارة من يده مباشرة، وبدأ القراءة:
"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، الله لا إله إلا هو الحي القيوم..." حتى أتى على آخرها.
كان يُخطئ في ترتيب بعض الكلمات، ساعدته في تصحيحها:
- شفت، يوجد بعض الأخطاء، لذلك لم يذهب الشيطان عنك..
ابتسم ابتسامة عريضة، ثم قال:
- لحظة، لحظة... رح عيدها مرة تانية..

بدأ يقرأ ويعيد المرة تلو الأخرى، وأنا أستمع وأُصحّح له..
بعد المرة الخامسة، قرأها بشكلٍ صحيح تمامًا.
أشعل سيجارة، فسحبت من علبته سيجارة، لأشربها بعد رحيله.
وقف متعجلًا:
- طيب، أنا رايح..
- تصبح على خير يا زياد..

إعادة أخيرة

أغلقت الباب خلفه، ليتركني مع فرحتي الصغيرة، التي تلاشت بسرعة، عندما دق الباب مرة أخرى:
- من؟
- أنا، أنا زياد..
فتحت له، فقال:
- بس ذكّرني، شو هي الآية الغلط؟
أعدت له الخطأ والصحيح، فقال:
- لا... اقرأها بشكل صحيح فقط.
فقرأتها له، أدار ظهره وقال:
- خلص تمام، يلا سلام، بشوفك بعدين!
أغلقت الباب، لأتابع خطواته من النافذة، كانت تمطر بغزارة، مشى قليلاً تحت المطر، ثم عاد!
هذه المرة، كنت بانتظاره أمام الباب، لم يتفاجئ لوقوفي كثيرًا، كان مبتلًا بشدة، وقد تفلتت فتحة جاكيته، فبدا شعر صدره وبطنه واضحًا، قال بارتباك:
- بس آخر مرة... شو هي الآية الغلط؟

ناولته المنشفة مبتسمًا، فلم يعرها أي اهتمام.
لعلها المرة العاشرة التي أصححها له.. عندما أدار ظهره ليغادر، قلت له:
- بدك ترجع مرة تانية؟
نزل، ولم يجب، وقبل أن يصل إلى نهاية الدرج، سمعت وقع أقدامه عائدًا، قال لاهثًا:
- اكتبلي ياها كلها، اكتب بس الآية الصح..
- ادخل..
- مو مشكلة، رح استناك عالباب..
- ادخل، الساعة الآن الثالثة بعد منتصف الليل، أخشى أن يراك، أو يسمعك أحد من الجيران، فيعتقدوا بأنك لص الموتورات!
لم يستجب، فتعجّلت في كتابة الورقة، قرأها ليتأكد من كل شيء، ثم رحل..
ترافَقَ مع نزوله، فتح باب أحد الجيران وإغلاقه بقوة!
بقيت أراقبه من النافذة يختفي مع ضجيج أقدامه، الذي كان يخبو شيئًا فشيئًا!
نظرت إلى سيجارتي المنتظرة على الطاولة كفرحة لم تكتمل، أفكر بالازعاج الذي سببته لذلك الجار..
ذلك الباب الذي أغلقه، لم يكن مجرد موقف غاضب، ولم يكن بابًا خشبيًا وحسب، بل إنها صفعة من باب امتدت إلى وجهي..
مع الباب يد الجار، ويد أنور، ويد الحياة التي كانت تعطيني تلميحها الأخير!!
سحائب الدخان ترتفع، وترتفع، ثم تختفي تمامًا، لتتبدد معها

سعادتي، التي تحوّلت، إلى كآبة!
أتأمل حالتي..
قبل قليل، كنت متحمسًا وأنا أضع الخطط، والحوارات، أتخيلها، وأعيشها، بكامل سعادتي، والآن عندما أعود لنفسي، إلى الحقيقة، أجد أن كل ما أدور فيه هو سراب..
هل أبحث عن سعادة هؤلاء، من خلال حزني؟
هل هذا مطلوب مني، من الذي ألزمني بذلك؟
لقد تلقيت الآن أول صفعة، كانت بحجم باب خشبي، مليء بالوجوه الحانقة، أولهم وجه أنور، أتخيله يوبخني الآن:
" ألم أقل لك!!"
نظرت إلى تلك الأوراق، والخطط التي تركتها ملقاة على الطاولة، وتلك الكتب المكدّسة، وكأنها ورشة نفسية متكاملة!
أشحت بنظري إلى النافذة المطلة على السماء الماطرة، وناديت في سرّي:
"يا إله الكون، يا إله المظلومين، والضائعين، والحيارى.. ألهمني الصواب.."
لملمتُ بقايا القهوة والدخان، وفي قلبي عزمٌ على إغلاق هذا الباب، فاتحًا باب العودة..
أنا الآن، أنقذ نفسي!

١٦

باب الذاكرة

سمِّد معبدك..

- صباح الخيرات، شمستك عالية.. تتأخر كتيرًا هذه الأيام أستاذ فريد!

- وحضرتك المسؤول عن الحضور والغياب؟

يضحك، قائلًا:

-أنا مجرد ملاحظ لتقلبات صديقي الذي يهمني أمره

- كل شيء على ما يرام، أو سيكون من الآن!

مشيرًا إلى بطني، متفاجئًا:

- ما هذا.. لقد أصبح كرشك أكبر!

أطبطب على كرشي:

- كرش الوجاهة، أفكر في الذهاب معك إلى النادي، ما رأيك؟

- هذه أخبار سعيدة، كنت على وشك تركه، لأنني وحيد..

- في أي ساعة تذهب؟

- لايوجد وقت محدد، ولكن غالبًا في الساعة السابعة مساءًا

- توقيت ممتاز، إذن "سَمِّد معبدك"

متفاجئًا:

- نعم؟ سَمِّد شو؟

- ألا تعرف؟ سَمِّد معبدك..

- ما هذا المصطلح؟

- إنها إحدى مصطلحات زياد، التي لا تعني شيئًا، إلا أنها تمنح اللحظة نكهة ساخرة، تقريبًا مثل مصطلح "هاكونا ماتاتا"

يضيف أنور، مبتسمًا:

- لا أدري أيّكما هو المجنون!

- كوسا يا أنور، كوسا!

- كوسا!!
- لا تقل لي أنك لا تعرف الكوسا!
- أعرفها، ولكن لم أعد أعرفك..
- إنها أيضًا من مصطلحاته، حين يكون في حالة اللامبالاة، وكأن الأمر لا يعنيه!
أنور، متفاجئًا:
- لقد أصبحت تتحدث مثله، أخشى أن يكون قد أصابك مسٌّ من "السحر"!
- سحر؟ لا، لا يوجد سحر إطلاقًا!
- وما الذي يدريك؟ السحر لا يُرى ولا يُسمع..
- وهذا هو أخطر ما فيه، لذلك يتحكّم به المحتالون!
- كنت أخاف عليك، والآن أنا خائف منك!
- مني؟ أضيف ضاحكًا: **إنه زياد، رجل المتناقضات والمستحيلات!**
- لقد شوّقتني أن ألتقي به..
- لقد فات الأوان، أنا عازم على تركهم!
- من هم؟
- أقصد زياد، وخالد، وأبو غالب، والجميع!
لا أريد الغوص أكثر في عالمهم، كثرة التفكير بهم، يأخذ من وقتي، وجهدي، ونفسي، أنام على قصة أحدهم، لأستيقظ على أخرى!
- لقد نصحتك منذ البداية..
- نعم، أنا انتظر هذه الكلمة منك، معك كل الحق، لقد تدخلتُ فيما لا يعنيني.

- لا بأس، إنها تجربة مثيرة، ستفيدك حتمًا في شيء ما!
- ليست مثيرة وحسب، بل فتحت أمامي أبوابًا، ما كنت أحلم بالوصول إليها، عالم مليء بالفوضى، والمساكين، والضائعين!
- مع هذه الأخبار السعيدة، ما رأيك أن نذهب في إجازة إلى دمشق؟
- وهكذا أضمن عدم رجوعهم، بعد أن يفقدوا التواصل معي.
- يومان كافيان، صحيح؟
- بكل تأكيد، نذهب الخميس، ونعود السبت مساءًا..
- احجز لنا...

رحلة.. داخل النص!

يوم الخميس، وبعد انتهاء الدوام، ذهبنا إلى الكراج، جلسنا في مقاعدنا، بانتظار تحرك البولمان إلى دمشق.
خلال تلك المدة، جاءتني الكثير من الاتصالات التي تجاهلتها، بالتأكيد كانت من أحدهم..
على تلك الأنغام الرقيقة، وفي تمام الساعة الخامسة عصرًا، كان كل راكب يجلس في مكانه المخصص، وقد عمَّ البولمان صمتٌ جميل، بانتظار السائق أن يتحرك..
أنور لم يوقف حديثه عن فوائد البروتين، والمكمّلات الغذائية..
إنه منغمس تمامًا في الجو الرياضي، ضحكت بيني وبين نفسي:
"إنه يشبهني في هذه الناحية أيضًا، يغوص إلى العمق في الشيء الذي يحب!"
عندما مرَّ مرافق السائق، تذكّرت زياد، وقد كان يعمل في نفس

الشركة، بشكل لا إرادي، سألته:
-هل لا زال زياد يعمل هنا؟
- مَن زياد؟
- زياد الـ..
أجاب باستخفاف:
- آآه زيااااد، لقد ترك منذ أشهر!
- هل تعلم ما السبب؟
- بحسب ما يقوله الناس، إنه مسحور، وقد صار مجنونًا!
نكزني أنور أثناء سماعه لكلمة "السحر"، قلت للمرافق:
- وهل سيعود للعمل معكم؟
- لا أعتقد، في رحلاته الأخيرة، بدا غير منضبط بمواعيد الرحلات، وذلك بسبب توقفه الكثير في الاستراحات غير الرسمية..
- هذا مؤسف!
- هل تعرفه؟ صعدت معه سابقًا؟
- أعرفه، ولكن لا أدري إن كنت قد صعدت معه أم لا..
- سلّملي عليه، وقل له: أن يرجع زياد الذي نعرفه، يجب أن يقرأ قرآن، ويصلي الصلوات الخمس في المسجد، وإن شاء الله، سيبطل السحر!
ثم أضاف مستدركًا:
- أنا أعرف شيخًا قويًا، لفك جميع أنواع السحر، سأعطيك اسمه، ليتواصل معه..
- إن شاء الله..
كان أنور يحدّق بي، وبنبرته الساخرة قال:

- كل الناس تقول إنه مسحور، إلا فريد، يقول إنه مريض!
- الأمر لم يعد يعنيني الآن. ولاتنسى أننا في رحلة استجمام، ونسيان للماضي..
- اوه، لقد ذكرتني، ولكن يبدو أنك لا تريد النسيان..
- أنا؟
- إنهم يعيشون معك في كل لحظاتك، حتى صرت تقتبس من أحاديثهم، وتفتّش عن ماضيهم..
- لست كذلك... إنه الفضول وحسب!
- الفضول؟ هل تسمي ما تمرّ به مجرد فضول؟
أجبته بانفعال غير مقصود:
- ماذا تريدني أن أفعل، عندما تجد أمامك رجلًا حياته محترقة، وآخر على وشك الاحتراق، وتلك التي ألبستها الحياة تهمة ليست فيها، والآخر الذي يعتقد نفسه نبي آخر الزمان، ماذا تريدني أن أفعل؟ أتركهم وأغمض عيني كأن شيئًا لم يكن؟ لستُ كذلك يا أنور، لستُ كذلك!
مبهوتًا تمامًا:
- لا أدري يا فريد، ولكن...
قاطعته:
- أنا عازم على ذلك، ولكن لا أقدر على تجاهل ما رأيت وما سمعت!
بعد صمت بدا طويلًا، وأمام نظرات أنور الحائرة، كان لابد من كسر الجو الكئيب الذي خلفتْه كلماتي الأخيرة:
- أريد أن أخبرك بعض القصص عن زياد، خذها على سبيل التسلية والمرح فقط!

- هات لنشوف..

- في إحدى المرات، كان معي في السيارة، وقد بدأ حديثه، بعد أن أقام طقوسه المعتادة قبل التدخين، ردد معي:

واحد... واحد... واحد!

فأردّد معه.. **قل: شباك... شباك... شباك!**

فأردّد معه.. **قل: باب... باب... باب!**

وهكذا، إلى أن يعد عشرة أشياء، يكرّر كل منها ثلاث مرات، وأنا أُردّد بعده، إلى أن ينتهي، فيضحك بجنون، وكأنه بتلك العملية، قد أعاد **"الدوزان" لروحه.. ومن ثَم، يبدأ الحديث عن حياته، وماضيه، وأحيانًا مستقبله..**

كان أنور، يتمتم قائلًا:

- وأنت... كالأحمق، تردّد وراءه ما يقول!

- لا أملك إلا مسايرته، خشية أن تُصيبه نوبة، كتلك التي أصابته على كتف الوادي!

- ولم تعرف سبب تلك النوبة؟

- كل ما فهمته، أن صديقه القديم، الذي التقى به عند بائع المناقيش، قد شدّ له "المسكة"، فتصلب جسمه، ولم يعد قادرًا على الحركة بحرية!

- ما قصة تلك "المسكة"؟

- يبدو أنها شيء خارق يؤمن به، لها أسلاك متشابكة مع كل البشر، واحد من هذه الأسلاك يشدّ الجسم، والآخر يرخيه، واحد يساعد على النوم، وآخر يساعد على الزواج!

يضحك أنور، قائلًا:

- هذا رائع... تخيّل أن يكون العالم كله مبني على مسكة

ملعونة!

- لك أن تتخيّله معي في السيارة، يُرهف سمعه بهدوء، بعد أن يأمرني بالصمت، ثم يبدأ بتحريك أصابعه: يده اليمنى مفتوحة للأعلى، ويده اليسرى يبُرم بها شيئًا لا يراه أحد سواه: مرخي العينين، يُنصت بكل جوارحه، لحظات، ويُنزل كلتا يديه، ويسكن سكونًا تامًا، ثم يُريح ظهره متنهّدًا: شايف؟ هلّق هيك الحياة صارت حلوة!

ويضيف: **ما بيصير حدا يلعب بالمسكات، بعدين الناس ما بتعود تعرف تشتغل، ولا تنام، مظبوط ولا لاء، أنت أستاذ وبتفهم!؟**

- بماذا كنت تجيبه؟

- أجيبه بما يريد أن يسمع، وقد تذكرتُ الآن أمرا آخر، في لقائاتنا الأولى كان ينادني: أستاذ فريد، وبعد فترة قصيرة، صار ينادني: فريد، وبعدها، صار يقول: وينااااك!

أضحك مع أنور، فأضيف عليه:

- سأزيدك شيئًا آخر من طرافته..

- هات، لقد شوّقتني!

- في إحدى المرّات، أخبرني عن "مقترح اقتصادي"!

- اقتصادي؟ فرد ضربة؟

- قال: ليش الدولة، ما بتجيب شاحنات مصاري، وبتوزّعها؟ خلي كل الناس تاخد، فيها شي؟ وكلهم يصيروا زناكيل، شو رح تخسر الدولة، شويّة ورق وطباعة!

حاولت في ذلك الوقت، أن أشرح له النظرية الاقتصادية المؤطّرة لتلك الفكرة، ولكن توقّفت، بل وأضفت عليه: يجب أن

يكون هناك نظام لكل شخص، ولا يجوز للشخص أن يأخذ حصتين.
فأجابني: وخلي ياخدوا مرتين، أوبتعرف شو؟ لازم لكل شخص يوزّعوا " شاحنة" معباية مصاري!
قلت له: ولكن لازم يكون في نظام، يعني بالدور.
أجاب: إي أكيد.. ثم استدرك متنبهًا: **أووف! والله بيطوّل الدور، يعني وين لحتى يوصلني الدور؟**
فأجيبه: مو مشكلة، المهم رح يوصلك الدور، أديش بدها؟ سنة، سنتين، المهم توصلك الشاحنة!
يضحك، قائلًا: مو هيك، المهم يوصلني الدور ونصير زناكيل..
فأجيبه: بتتزوج، وبتعيش حياتك ع الآخر!
فيقول: أنا ما بدي شي، بس بدي سيارة، وبدي أتزوج، بشتغل، وبرجع على بيتي، وانبسط مع مرتي... وخلص، هاي هي الحياة..
فأسانده الرأي: أكيد... أحلى حياة يا أبو الزوز!
كان أنور متلهفًا لتلك الفكرة، فقال:
- لقد أعجبتني فكرة الشاحنات، تصور لو أنها تصبح حقيقة.. هذا الزياد لديه أفكار شيّقة جدًا!
- أفكاره سابقة لعصره، رغم سلوكياته غير المنتظمة، أو تلك التي لا أجد لها أي تفسير منطقي!
- مثل ماذا؟
- رغم كل قذارته الغارق فيها، فإنه يلبس بيده اليمنى فقط، كفًّا صوفيًا أسودًا مقطوع الأصابع!
وعندما سألته، لم يُجبني بشكل مفصّل، ثم لاحظت بعض

الأمور وربطتها ببعضها، فسألته:هل تلبسه لكي لا تُسلّم على أحد؟ لا تريد أن يلمس جلدك أحد؟

- ها... وبماذا أجابك؟

قال:

- أحيانًا تكون يدي متّسخة، ولا أحب أن أسلّم على أحد!

- حقًا؟ بالتأكيد كان يمزح!

- إطلاقًا، إنه أشبه بوسواس معكوس، لا يحب أن يلمسه أحد، وكأنه على طهارة، ولا يريد أن يُنتقض وضوءه.. هذا ما توصلت إليه، رغم عدم اقتناعي الكامل بذلك..على العموم، لقد تمزق، ورماه على مضض، ولم يلبس غيره بعدها

- ربما هي من أعراض السحر..

- أيّ سحر؟ إنه يقرأ القرآن بشكل دائم، ويحفظ الكثير من الآيات القرآنية التي يستعيذ بها من الشيطان، هل يفعل ذلك من كان مسحورًا؟ هذا على فرض أني أؤمن بالسحر..

- لا أدري، المهم الآن: أن كل شيء قد انتهى..

سيجارة.. عادية!

كان يقول ذلك، ونحن على وشك الوقوف، بعد أن وصلنا إلى الاستراحة في منتصف الطريق الواصل بين حماة ودمشق.

- نعم، انتهى كل شيء يا أنور..

- أنا مرتاح لسماع ذلك، الآن لديك مادة دسمة، لماذا لا تُلخّص ما جمعته في مقال، أو مقالات متفرقة.. تتحدّث فيها عن تلك الظواهر التي نمرّ بها، دون أن نعيرها أي اهتمام!

- أفكّر في هذا الأمر أيضًا..

وقفنا أمام البولمان، وقد خيّم الليل بنسماته العليلة، وهدوئه الخافت، التفتُّ إلى أنور، الغارق في دخانه، وقلت له:

- أعطني سيجارة!

- هل حقًا تريد واحدة؟

أجبته باستهتارٍ، أعرفه تمامًا:

- عادي..

١٧

باب القدر

فلكٌ دائر!

بعد رحلة ممتعة قضيتها مع أنور، في أزقّة دمشق العتيقة، وحدائقها المنعشة، كانت الحياة تدبّ في عروقي، فتدق نبضات من الشوق إلى حماة..

مع أول نزولي في الكراج، أتفقد ذاكرتي عنها، أراقب أدقّ تفاصيلها، مع تهاليل الأذان والغروب.

شيئًا فشيئًا، يسقط الليل كشهاب عتمة، مليء بخلايا من نور!

بدا طريق الكورنيش المحاذي للقلعة ونهر العاصي أشدّ توهّجًا، وتلك الناعورة التي تئنّ بطرب، كنغمة أزلية تربط بين الماضي والمستقبل!

مع دخولي للقناطرالحجرية، التي تفصل بين باب النهر وذلك الحيّ الذي غادره قلبي، مخلّفًا في داخلي، ذاكرة لا أظن أن مثلها قد تتكرّر، هل ارتاح بالها أخيرًا؟ أما زال خالد على عاداته؟ هل وجد أبو غالب ذاته الحقيقيّة بين تلك الذوات التي كان يتقمّصها؟ وهل رحلت عنه تلك الأصوات؟

أسئلة أحبُّ أن أعرف أجوبتها، دون أي تورّط!

أمانيَّ تلاحقهم بالخير، ودعائي لهم لا يغيب، وسط هذه الحياة القاسية التي فرضها عليهم المجتمع.

لن أتورط بعد الآن!

أردّد تلك الكلمة، تقويةً لنفسي، التي صارت تتفحص تلك المباني، وكأنها تنادي لأحدهم أن يجدني، أو أجده.

ولكن، لا... يجب أن أترك الزمن يأخذ مجراه، إنها عدالة الحياة، ولا يجوز لأحد أن يتدخّل..

على حين غرّة، أخذتني هزّة فكرية عنيفة:
"ماذا لو كان بقائي معهم، مكتوبًا في أقدارهم؟"

...فتضحكُ الأقدار!

ناديت في سرّي: أين أنت يا أنور؟
لو أنك معي الآن، لتجاهلتُ ذلك الشبح الذي قفز أمامي، مثل نبوءة غير متوقّعة، ملوّحًا، مصفّرًا..
لم ألتفت، تابعت طريقي، أنظر إليه خلسةً من مرآة السيارة..
يتوسّط الشارع، غير آبهٍ بالسيارات الصاعدة، يلوّح ويصيح:
فريد.. أستاذ!!
لا أدري أيّ يدٍ قادت المقوَد، لأعود!
قلبي الذي كاد يقفز من الفرحة، لهذه الصدفة!
وكمن يزيح الذنب عن كاهله، أتحدّث في خيالي مع أنور:
أرأيت.. من الذي زرعه هنا في هذا التوقيت بالذات؟
من الذي أخبره باللحظة التي سأمرّ بها؟
ولا تقل لي: صدفة، بل إنه القدر، الذي يريديني أن أكون معه في رحلته، وأن أكون **مخلِّصه..**

إغراءٌ مستتر!

كان أصلعًا هذه المرة، لم يبقِ من شعر وجهه إلا رموشه وحاجباه، صعد السيارة بكنزة ربيعية مُخطّطة بخطوط عرضية باللون الأبيض والأزرق، وفوقها جاكيت جلدي أسود، مع بنطال جينز، وكأن الدنيا قد فتحت له أبوابها، كابتسامته التي كانت تتّسع، مع ترحيبه المستمر:

- يا هلا بالأستاذ، وين هالغيبة يا زلمة؟
أجبته، بضحكتي:
- منوّر يا أبو الزوز، شو هالحلاوة.. هل اشتريت سيارة؟
قال وهو يشير لي أن أمشي:
- من وين يا حسرة!؟
قلت له، مستفسرًا:
- إلى أين؟
- خلينا نطلع على البرناوي شوي، والله مشتاقلك..
متظاهِرًا بالتعب الشديد:
- والله تعبان يا أبو الزوز، وبدي روح لعند أهلي، هلّأ رجعت من الشام..
- الله حيّو، ليش ما أخدتني معك؟
- كانت رحلة سريعة، المرة القادمة نذهب معًا.
قال، بعد أن أمدني بسيجارة:
- امشي شوي... ما منطوّل!
لم أقدر على مقاومة إغراء تلك الرشوة، أخذتها دون أن أشعلها، وأدرت ناقل السرعة باتجاه البرناوي..
اخترتُ مكانًا بعيدًا عن أعين الناس، وفي تلك العتمة أشعلتها، وقد تأكدت حينها: **أن العهود النفسية لا تكسر بالقوة، بل تغتال بالود!**
أغني مع نجاة الصغيرة التي وصلت إلى مقطعها:
"ورجعت... ما أحلى الرجوع إليه، إليه"

مضت تلك **"الشوي ومنرجع"** أكثر من ساعتين مليئتين بالصمت والدخان.. كان الحديث بيننا عن اللاشيء، **ذبذبات**

صمت تتحدث بلغة أفهمها تمامًا، فأحاول تفكيكها، فيؤجلني إلى صمت جديد بقوله: **منحكي بعد شوي!**
ينزل من السيارة، يتمشّى غير بعيد عني، ثم يعود ليطمئن:
" يا هلا والله بالأستاذ... مشتقلك يا زلمة!"
تارة يجلس، وتارة أخرى ينظر من النافذة الخارجية إلى الداخل، ليخبرني أنه هنا..
كنت معلّقًا ما بين: انتظار وتأهب.. قلق، وسعادة**!**
ألغيت بعضها بقناعتي، وبقيت **منتظرًا** أن تُحلّ العقدة، التي أحسست بها مُرتبكة في صدره، يكاد ينطق بها، إلا أنه ينتظر اللحظة المناسبة..
ها هي أخيرًا..في قمة الحماسة قلت له:
- أخبرني..
- أستاذ فريد... بدي قلّك شغلة!
- عم أسمعك.
سكت قليلًا، وكأنه تذكّر شيئًا ما، ثم فتح الباب مسرعًا:
- يلا، بس شوي وراجعلك... لا تروح!
في غيابه، راجعتُ نفسي: لعل حماستي قد أربكت أفكاره..
سأخفف من هذا الحماس، وأتظاهر بأن الأمر لا يعنيني..

بنت شفه

عندما عاد، بدا أشدّ وجومًا، سحب بعمق من سيجارته، ونفثه بشدة، ثم قال:
- أنت صديقي وصاحبي... صح ولا لأ؟
- نعم، بالتأكيد..

تابع، وكأنه لم يسمع جوابي:
- أنت كنت عم تساعدني، وتفكلي المسكة، لحتى ارتاح..
- هذا صحيح..
توقف قليلًا، ثم قال:
- ممكن شغلة؟
- تفضل..
- اتركني احكي، ما ترد... اتفقنا؟
أراقبه بعيون طفل يسمع شيئًا جديدًا لأول مرة، أجبته:
- الآن، أجيب أم لا ؟
- هلئ جاوبني، بس بعدين لما أحكي معك، ما ترد، اتفقنا؟
هززت برأسي موافقًا، فتابع بهدوء:
- أنت صديقي وصاحبي، وكنت عم تساعدني، وتفكلي المسكة لحتى أرتاح..
نظر إليّ... يراقبني إن كنت سأُجيب أم لا، إلا أنني خيّبت ظنّه، فأكمل حديثه:
- بدي نام وارتاح، حتى أقدر روح على الشغل، إذا ما نمت بالليل، شلون بدي اشتغل؟ صح ولا لاء؟
كنت على وشك إجابته، فتذكّرت طلبه، وخشيت أن يعود إلى البداية، **فلم أنبس ببنت شفه!**
يتابع حديثه الذي حفظه عن ظهر قلب، خاليًا من الأخطاء، ليُلقيه على مسمعي كخطاب جمهوري، دون أية مقاطعة**!**
والمقاطعة هنا، تعني العودة للنقطة الأولى، وهذا ما حرصت على عدم حدوثه**!**

معلِّم مسكات

- أمي ما عم تخليني نام، عم تلعب بالمسكة، وإنت الوحيد اللي عم تساعدني، أنا ما عم بعرف ظبّط المسكة...

يستدرك سريعًا: **أنا بعرف، بس مرات الواحد بيغلط وبدو مساعدة، يعني لا تفكّرني غشيم، أنا بعرف بالمسكة منيح، شوف كيف**.. يُلوّح بيديه في الهواء: **اليمنى:** عالية ممدودة نحو الأعلى، **واليسرى:** إلى الأسفل، يدير بها مفتاح المسكة الذي يراه وحده، يبرمه نحو اليمين قليلاً، ثم إلى اليسار قليلاً، وبعيون نصف مغمضة، يتأمّل، ثم ينظر إلي، قائلًا:

- شايف.. هيك لازم تكون المسكات، هاد السلك الأحمر: بيخلي الناس جسمها مرتاح، والأخضر: لحتى الناس تتزوج، والأصفر: حتى الناس تنام، مظبوط ولا لاء؟؟

لم أجب، فقال لي:

- هلّئ احكي..

نظرت إليه خوفًا، وأومأت برأسي، فقال:

- احكي، احكي... خلصت.

- أنا صديقك وأخوك، وأي شيء تحتاجه رح ساعدك..

- شايف؟ هلّئ أنت مرتاح، صح ولا لاء؟

- نعم أشعر براحة كبيرة..

- هي المسكة شي خطير، ما لازم حدا يلعب فيها!

هززت برأسي، فتابع:

- يعني الغشيم، واللي ما بيعرف فيها، بيصير بيلعب فيها يمين وشمال، بيخربط الدنيا، والناس بتضرب بعضها، أما أنا

بعرف، وإنت بتعرف، صح ولا لاء؟

- مظبوط يا أبو الزوز..

- أنا بفهم، مع أني مو متعلّم، بس مو كل عليم، فهيم "الفهم قدّموه على العلم".

أجبته، مندهشًا:

- هذه عبارة قدسيّة عبقريّة، الفهم مقدّم على العلم، بالتأكيد!

كيف خرجت من فمه بهذه البساطة، وكأنها أمرٌ بدهي!

أضحك، فيضحك معي، يردّدها:

- الفهم... قدّموه على العلم!!

ثم قال منتشيًا:

- خلينا نعمل فتلة بالسيارة، إنت اتأخّرت على أهلك؟

- لن أذهب إلى بيت أهلي، سأذهب إلى البيت.

نظرتُ إلى الساعة، التي تجاوزت الثانية عشر بعد منتصف الليل، قلت له، بعد أن أدرت السيارة:

- سأوصلك إلى بيتك..

مشينا تحت عتمة الليل، مع صوت الأغاني التي كانت تصلنا مع النسيم والعربات المصطفة على كتف البرناوي..

من تلك الإطلالة، نزلنا إلى بيته القريب من جامع السرجاوي، توقّفت هناك، والسيارة ما زالت تدور، قلت له:

- أراك على خير يا زياد..

نظر إليّ، وقال:

- بس هي السيجارة بدخّنها وبتروح..

قلت مع نفسي: **"سيجارة لن تأخذ أكثر من خمس دقائق"**

ثم أشعل سيجارته، ونفثها **كتنين في منتصف الليل!**

على الرغم من منظره المهيب، وكل حالاته المعقدة، كان لا يبدو أمامي إلا ذلك الطفل البريء الذي لا يعرف كيف يتصرّف.. عندما يخاف!
ناداني فجأة قائلًا:
- تعال، تعال!
خرجتُ من السيارة، واتجهتُ صوبه..
ولا أدري ما الذي يجعلني أنصاع لأوامره، وكأنها غير قابلة للنقاش، هل سحرني حقًا؟
كل ذلك لا يهم، بعد أن وصلت إلى هذه المرحلة معه..

إسعاف ليلي!

تلك المرحلة التي تجعلني أدخل بيته دون أية مناقشة، لأجد أمه تتوسّط الصالون، تشاهد التلفاز بسكينة، وبيدها نركيلة تعُبُّ منها، مخلفةً الكثير من الدخان، الذي تلاشى شيئًا فشيئًا مع دخولنا..
تبادلنا السلام، وجلستُ في الصالون، بينما اتجه زياد الذي كان في قمة حماسته إلى المطبخ ليُعد العشاء، وجدتُ في ذلك فرصةً مناسبة للاختلاء مع أمه، وسؤالها عن أحواله، فقالت بأسىً:
- والله بعده متل ما هو، صراخ بالليل، وكفر والعياذ بالله، ونشح، أنا مهددته حاليًا، إذا بيبقى هيك ما رح يضلّ معي بالبيت، كرمال هيك رضي يحلق شعره ودقنه..
ثم أضافت، بنبرة مشوبة بالحزن:
- أنا ما بحب الوساخة أبدًا، وزياد ما كان هيك، مابعرف ليش انقلب حال هالصبي..

قلتُ لها مواسيًا:
- لقد أخبرتِني بأن الطبيب أوصى له بدواء، يجب أن يتناوله..
- ما عم يرضى ياخد أية أدوية...
اقترحتُ عليها:
- حطّي الدوا بالأكل أو بالشراب..
أجابت بحسرة أكبر:
- ما عم يقبل ياكل ولا يشرب مني.. مرّات، بكون تاركة أكل بالمطبخ على الطاولة، ما بيقبل ياكل منه أي شي!
نظرتُ إليها بحزن، وقلت بحزم:
- يجب أن نجد طريقة ليأخذ الدواء..
أجابت بلهفة غريق:
- إيدي بزنارك يا أستاذ، يا ريت تحكي معاه، بركي بيسمع منك، شايفته بحبّك وبيعزّك..
- رح حاول، وعم فكر نجرب طريقة تانية..
نطقتُ بفكرتي الجنونية على عجل:
- معك حبّة دوا الآن؟
أفلتت نبريج الأركيلة من يدها، وقالت:
- والله ما بعرف... رح شوف!
قامت من مكانها بهدوء، متلصّصة، تراقب من بعيد زياد الذي كان في المطبخ يقشر البطاطا، ليقليها، ويحضر معها طبقًا من السلطة.. فتسربت إلى غرفتها.، ثم عادت متهلّلة، وفي يدها مجموعة أدوية، رمتهم أمامي، محتارة:
- والله نسيت أي واحد، بس بتذكر"مشيرة إلى أحد الظروف"
هاد الدوا بيرخي.. أما الآخر، ما بعرف لشو .. إمّا هذ أو هذا!

أخرجتُ النشرة الداخلية، ثم قلت لها:
- سأتصل بصديقي، الذي يعمل صيدليًا، لنتأكد.
بصوت هامس، سألته عن اسم الدواء واستعمالاته، أغلقت الهاتف، مشيرًا لها:
- هذا هو، يجب أن يأخذ منه كل يوم، صباحًا ومساءًا ، أو على الأقل مرة واحدة ليلاً..
أومأتْ لي برأسها:
- إي، هيك قالت لي الدكتورة..

خُطّة الشاي الساخن

أمسكتُ الظرف، وبحواسي المشتعلة، أفرغتُ حبّة داخل راحة يدي، وأخفيت باقي العلب مع أمه، ثم اتجهتُ إلى المطبخ، أول ما خطر في بالي: أن أضعها له في كأس الشاي.. ناديته، لأني لم أجده في المطبخ.. نظرتُ في غرفته فوجدته سارحًا، ينتظر البطاطا ريثما تستوي، سألته:
- عملت شاي؟
- لا، بعد الأكل منعمل..
- مو مشكلة، أنا رح ساويه.
ملأت إبريق الشاي بالماء، وضعته على النار، أفكر في طريقة أضمن شربه للشاي في الكأس الذي أضع فيه الدواء..
ولكن، أريد التأكد أولًا من إمكانية تحلل الحبّة في الماء الساخن.. ماذا لو لم تتحلل؟
فعدّلت الخطة على عجل.. انتظرتُ ريثما يسخن الماء، وقبل أن أضيف ملعقة من الشاي، صببتُ قليلاً من الماء الساخن في

الكأس، ووضعت فيه الحبّة، انتظرتها ريثما تذوب، حرّكتها أكثر من مرة، دون فائدة!
ازداد الرعب في قلبي... فحاولتُ تفتتيتها وهي في الكأس، فدخل الماء من ثقوبها الداخلية، وبدأت الحبّة تتحلّل شيئًا فشيئًا، ولكن أصبح الماء باردًا مع كثرة التحريك، التفتُّ حولي، فوجدت ركوة صغيرة، وضعت فيها الماء الموجود في الكأس، ووضعت الركوة على النار، **ثم تنبهت!!**
أيها الأحمق.. ربما يتأثّر مفعول الدواء بفعل الحرارة!
أخذت الركوة بعيدًا، وأنا مذعور من حضور زياد المفاجئ، إلا أن تتابع طقطقة قداحته طمأنني..
الركوة في يدي.. بتلقائية، سكبتُ المزيج في صحن السلطة، وحركتها قليلًا ورجعتُ إلى أمه، همست لها:
- لقد وضعتها في الطعام، وسنرى النتيجة!
كان أكثر ما يُرعبها، أن يعلم زياد بالأمر..

اغتيال للوهم

تناولنا الطعام، أكلتُ قليلاً، واعتذرتُ بحجّة أنني لا آكل كثيرًا بعد منتصف الليل، ثم جلستُ لأشرب الشاي في الصالون..
بعد أن انتهى، أحضر معه كأسه، الذي تركته يصبّها بنفسه، حتى لا تراوده أيّة شكوك نحوي..
جلس بقربي، يدخن، بينما انسحبت الأم إلى المطبخ، لتلملم بقايا الطعام، وتغسل الفوضى التي خلفها..
من الداخل.. أومأت لي **مشيرة إلى صحن السلطة**، أن قد أكله!
ارتاح قلبي لرؤية تلك الإشارة، كنتُ متحمّسًا لرؤية آثار ذلك

الدواء.. نظرتُ إلى ساعتي التي شارفت على الثانية ليلًا،
اعتذرتُ منهما وغادرت.. دون أي إلحاح من زياد، بالبقاء!

خرجتُ..
كمن انتهى للتو من تنفيذ مهمّة اغتيال نظيفة..
الفرق الوحيد:
أن القتيل هنا: كان **وهمًا**..

والهدف: **الخلود إلى النوم!**

١٨

باب الحياة

دورة ومسرحية..

- والنادي.. والحياة الجديدة !!

يصرخ ويكرّر مذهولًا:

- وسفرة الاستجمام!!

يضيف:

- وتلك الأحاديث والوعود..

أهز رأسي مبتسمًا، ومستسلمًا لهجومه.. كنت أتوقع تلك الهجمات الارتدادية، ومعه كلّ الحق، إلا أنني لم أبالِ اطلاقًا.. اتّخذت قراري، وسأكمل ما بدأته!

كانت النواعير، تطبع بدورانها على زجاج عقلي لوحة فنية عائمة، فقاطعتُ هيجان أنور:

- هل تسمع ماذا تقول الناعورة؟

أجاب ساخرًا:

- يا سلام.. والآن أصبحت تتخاطب مع الأخشاب والماء!!

أجبتُ عن سؤالي، غير مكترثٍ لسخريته:

"صناديق الناعورة، تُخبرك يا صديقي، أنك إمّا أن تعطي، أو أن تأخذ.. ففي حالة الضعف تأخذ، لتعطي في حالة الارتفاع والقوّة.. أما وأنت في حال سيرك بين المرحلتين، فيجب أن تكون منغلقًا على ذاتك، لتتعلّم فنّ الصمت والإدخار، حتى إذا ما وصلت إلى مرحلتك الأخيرة، من النضج المعنوي والعلمي والمادّي، فيجب أن تعطي، وتسكب ما تعلّمته لتروي، من هم على الدرب من أبناء جلدتك!

تعلّمك الناعورة.. أنها ليست دورة مياه وحسب

الناعورة يا صديقي... دورة كاملة للحياة!"

كان يستمع إلى تلك الكلمات مشدوهاً، صار يصفّق ويقول:
- أهلاً بكونفوشيوس الجديد لهذا العصر!
وقف أمامنا وليد مبتهجاً، أثناء ذلك الفاصل المسرحي، يصفّق مع أنور الذي زاد من شدة التصفيق، مشدوهاً بوليد الذي لم يكن يعرفه مثل ما أعرفه.. أوقفتُ هذه المسرحية:
- أهلاً وليد، كيف حالك؟
- الله يديم السعادة عليكم، أهلين وسهلين أستاذ فريد..
نظرت إلى أنور، معرِّفًا:
- أنور، صديقي ويعمل معي في الجريدة.
- أهلاً وسهلاً أستاذ أنور، نورتنا!
وأشرت إلى وليد، قائلًا لأنور:
- هذا وليد يعمل هنا مع أخيه أبو غالب.
نظر إليه قائلاً، وملمحًا لأشياء أعرفها من نبرة صوته:
- تشرفنا فيك وبأبو غالب!
قال وليد، وهو يلملم الكؤوس الفارغة:
- بتحبوا تشربوا شي تاني؟
قلت لأنور مقترِحًا:
- ما رأيك نشرب قهوة هذه المرّة؟
فوافقني، وقبل أن يذهب وليد، سألته عن أبو غالب، فأخبرني أنه في البيت، وسيأتي بعد قليل.
كانت السماء تزداد حمرة، مع القليل من الغيوم المتناثرة في جنباتها، وعصافير القاق تملأ الأفق ضجيجًا، أضف لها نقيق الضفادع، والأغاني المتكسرة، وصوت النواعير.. ما أجمل **مدينة حماة..** إنها مدينةٌ جاهزة لتكون بطلةً في أي رواية

رومانسية!
لا أدري لماذا يطلقون عليها **"جورة الهم!"**
ألأنها منخفضة عن البحر، وتقع بين مرتفعين أو تلتين...
ولكن لماذا: الهم !؟
القهوة على الطاولة، سحبت سيجارة من علبة أنور، غير آبهٍ للأفواه التي فُتحت، والعيون التي تدورت، أشعلتها، أنفث دخانها كغيمة من الوهم الجميل، ثم قلت له:
- إنها ساحرة حقًا، خاصّة مع هذه الأجواء البديعة!
كان هو الآخر يدخن، ردّ عليّ:
- ينبغي لك ألّا تُدمن هذه العادة، إنها لا تناسبك. أنا تربّيت عليها، ولا أستطيع تركها الآن، أما أنت فما زلت في بدايتك.
أجبته مازحًا:
- لا تقلق، بعد سنة سأصير قديمًا، ولن أستطيع التخلي عنها.. بل، لن تستطيع التخلي عني!
- أنت رجل مخبول، تُدخل الفلسفة في كلّ شيء!
- أمزح معك، إنها فترة مؤقتة، سأعود قريبًا إلى حياتي الطبيعيّة، خاليًا من النيكوتين!

نصف عين

مع جملتي الأخيرة، تردّد إلى مسمعنا أصوات صراخ شديد، لم يكن اقتتالًا، وإنّما صراخ ترحيب.. الكراسي تتحرّك ليقف أصحابها مسلّمين ومحيّين على الرجل الذي دخل!
كان في أواخر الخمسين أو الستين، أنيقًا، كأنّه أحد المسؤولين الذين لا نراهم إلا في التلفاز، كلّما اقترب، تبدّت ملامح وجهه..

إحدى عينيه مصابة، ولكنها لا تزال متماسكة، سِمَة التواضع الزائف بادية على محياه، مع أثارةٍ من زعامة واضحة، أراها في وجوه من حوله..
خلف هذا الحشد، الذي اتّخذ مكانًا -أُعِدَّ مسبقًا- في زاوية المقهى، ظهر أبو غالب، مرخيَ الكتفين، غارقًا في اللاشيء، يمشي خلفهم مباشرةً، ناول "الرجل" مفتاحًا لسيارة ما، واتّجه بعدها إلى المطبخ..
ناديتُه، رافعًا يدي، فعاد ليسلم علينا، أمام ذهول أنور:
- أهلين وسهلين، مشتاقين والله، شو وين هالغيبة؟
صافحته، وعرّفته على أنور:
- سافرت إلى دمشق، وها أنا الآن معكم..
يُلملم فناجين القهوة، قائلاً:
- الحمد لله على السلامة، نورت حماة ونوّرت المقهى، أنت والأستاذ أنور..
ثم أضاف:
- شو بتحبّوا نضيفكم؟
أجابه أنور:
- نحن على وشك الرحيل، شكرًا لك..
نظر إليه أبو غالب، ثم نظر إلي، قائلًا:
- وين تروحوا.. لسه هلّق شفناكم، خلي نجدد القهوة.
كنت راضيًا بهذا القرار، على عكس أنور الذي بدا مستعجلًا:
- أنا سأذهب، لدي بعض الأعمال في المنزل..
حاولتُ أن أثنيه عن قراره، لكنه انصرف متعجلًا، ومتعجبًا، قال أبو غالب:

- رح ساوي قهوة، وجاييك، حابب نحكي شوي..

- بانتظارك، ولكن قبل أن ترحل، من هذا الرجل؟

نظر إلى الجهة التي أشرتُ إليها، والتفت ضاحكًا:

- هذا الباشا، إنه جدّي!

لم أتوقّع أبدًا أن ألتقي به هنا، يبدو أن كل ما قيل عنه صحيح تمامًا، بل وأكثر!

بعد لحظات، عاد، ضرب برأسه يده:

- أوف، نسيت القهوة!

وليد.. وليد، وأشار بيده: **اثنين قهوة..**

بدا كئيبًا على غير عادته، ضعيفًا، مرتبكًا، مسندًا كلتا يديه على الطاولة، يعتمر قبعته السوداء، يتحدّث هامسًا:

- شو لازم أعمل أستاذ..

أجبته مستفهمًا:

- ما الأمر؟ يبدو أنك لا تنام جيدًا، متى استيقظت؟

- الساعة خمسة..

- خمسة الصبح؟

- هلّأ، قبل شوي!

- يعني نايم من الليل؟

- لا، نِمت شي الساعة ستة الصبح، وفِقت الظهر، ورجعت نمت..

- هذا يؤثر على صحتك ويجعلك خاملاً..

نظر إلي قائلاً:

- والله أنت ما في منك يا أستاذ، قلبك طيّب، وواعي، ومتفهم، وبتحب الخير للناس..

- وأنت كذلك، أخبرني: ما قصة جدّك؟

نظر إليه، معبِّرًا بنصف ابتسامة، هازًا بيده:

- الباشا أكبر نصّاب بالعالم، شايف اللي حواليه، كلهم بيخافوا منه!

- لهالدرجة؟ يعني شو بيعمل؟

قال، متفاجئًا:

- ما سامع بالباشا أبدًا!؟

أجبته، نافيًا، فقال:

- إنه متل زعماء المافيا، وفهمك كفاية!

نظرتُ إليه من طرف خفي، في تلك اللحظة خطر في بالي، كلّ قصص المافيا التي سمعتها، أو قرأت عنها، أو حتى شاهدتها في ذلك الفيلم المهيب**" العراب"**

مستفهمًا:

- يعني بيتاجر بالممنوعات والحشيش؟

بنظرة مُزدَرية، أجابني:

- كل شي، جدي بتاع كلو!

كان الحديث عنه، يخلق جوًّا من المهابة، سرى في جسدي..

وقد وضعت في بالي احتمال أن يكون الأمر مبالغًا فيه، خاصةً، وأن المتكلم عنه: حفيده!

أكثر ما لاحظته، نسبة الشبه الكبير بينهما: نفس الجلسة، نبرة الكلام الهادئة، طريقة سخريته ممكن حوله..

هذه الأفكار قادتني إلى سؤاله:

- هل تشعر نفسك أنك خليفة جدّك؟

باغتَه السؤال قليلًا، لكنه أجاب بهدوء:

- كتير من الناس، بيشبهوني اله، وأبي سمَّاني على اسمه، شو رأيك؟ معقول كون متله؟

سؤاله هنا لم يعنِ به الاستفهام، بقدر ما يعني: هل أستطيع أن أكون مثله؟ لعله لم يملك الجرأة على تقمّصه، على الرغم من رغبته العارمة في ذلك..

أجبته نافيًا:

- لا، أنت لا تشبهه أبدًا، يا أبو غالب!

مصدومًا بجوابي:

- يعني أنت هيك شايف؟

- بالتأكيد، أنت طيّب القلب، ولك شخصيتك المستقلّة، ربما تشبهه في بعض النواحي الشكلية أو حتى الشخصيّة، ولكنك أفضل منه بكثير!

أُعجبه جوابي، رغم عدم اقتناعه، ثم بادرته بالسؤال الأخطر الذي حضَّرته مقدمًا:

- هل شعرت أنك في يوم من الأيام أنك هو؟ أوهل تقمّصته مثل ما تقمّصت شخصية يوسف وغيرها من الشخصيات؟

بعد تفكيرٍ قصير، قال:

- لا، أو... يمكن في بعض المرّات، بس لما كنت شوف حالي بأني النبي يوسف، بقيت أكثر من سنة ونص هيك، يعني كنت لما طلّع على حالي بالمراية، شوف لون وجهي أصفر، كنت احكي متله بالضبط..

أضفت له:

- نعم، وكنت ترى أم خالد، وكأنها زليخة!

أجابني مصدومًا:

- هيك برأيك؟

ثم أطرق برأسه قليلًا، وقال:

- يا الله يا أستاذ، أديش عم تفتحلي قصص براسي، معقول أنا كنت شايفها متل زليخة؟

ثم أضاف:

- وبتعرف شو.. بقيت ثلاث شهور حسّ حالي كأني بويكا، بتعرفه هاد الملاكم؟

- نعم، أعرفه..

- حتى جسمي كان مشدود متل جسمه، وفي مرّة من المرّات، علقت طوشة، مع أكثر من عشر رجال، ضربت واحد منهم بوكس، بقي ثلاث أيام بالمشفى، صار معاه كسر بالجمجمة!

تذكّرت تلك المرّات، التي كنت أراه بها، وهو يمارس التمارين الرياضيّة في المطبخ، أخبرني وقتها أنه يقوم بالبوش أب لأكثر من ألف مرّة في اليوم، على دفعات.. لعله كان يرى نفسه "بويكا" في ذلك الوقت!

قال، متسائلًا، بنبرة من الحزن:

- كيف بدنا نرجّع أحمد لشخصيّته الحقيقيّة؟ ما بدي كل هاي الشخصيّات..

- أوّلًا، يجب أن أسألك: من هو أحمد؟

قال بعد تفكير قليل:

- أحمد الإنسان الطيب، اللي بحب عيلته وأخوته، وبحب كل الناس، وكل الناس بتحب أحمد، يلي بيلقطها على الطاير، حتى قبل ما تطير، أحمد يلي الناس بتحلف براسه!

استدركت عليه:

- أنت الآن تتحدث عن "الباشا أحمد" وأنا أريد أن أعرف، من هو أحمد، الجالس أمامي الآن على هذه الطاولة؟

بعد حيرة وتساؤلات ليس لها جواب، قال:

- من أنا؟ مين هو أحمد؟ معقول صار عمري ٢٥ سنة وما بعرف أنا مين؟

استدركت عليه، مخفّفًا وطأة ما يحمله من أفكار:

- أنت أحمد طه عبد الملك، تعمل في مقهى المأمورية، صحتك جيدة، وتعيش حياتك بشكل جيد، مع بعض التحفظات..

تابعت، أثناء صمته:

- ولكن ما هو الشيء الذي تحب أن ترى أحمد فيه، أو عليه؟

كانت صيغة السؤال ضبابية، فأعدت صياغته:

- ماذا تحب أن تكون، يا أحمد طه عبد الملك؟

أجاب بسرعة، وقد اشتعلت نبرته حماسًا:

- أحب أن أكون في أعلى مكان، أحمد ليس من هؤلاء الأشخاص العاديين.. أحمد رجل صالح، يحب الناس، ذكي، اجتماعي، يعرف الناس من نظرة واحدة، يعمل ويحب عمله، ويحب عائلته، هذا هو أحمد!

- والآن، هل تجد أن نفسك الآن، كما وصفتها؟

- أنا هيك، وكل الناس بتحب تكون معي وبصحبتي، أنا الأصلي!

ثم أضاف، كمن أفاق من غفلة:

- ليش أنا هون؟ ليش أنا لساتني على نفس هي الأفكار؟ أنا أحمد طه....

تركته يتحدث عن نفسه، بكل الصفات التي يراها، أو يبحث

عنها في داخله، وقد رآها الآن.. كمن انكشف له النور، داخل نفق عميق، ولكنه... ما زال يركن إلى القاع!

شرط، ووعد

كدت أصفق له:

- هذا هو أحمد، ولكن، هناك الكثير من الإعاقات التي تقف في طريقه، وتجعله لا يتقدّم في حياته الشخصيّة، والاجتماعيّة..

أجابني موافقًا:

- بعرف شو قصدك، أنا من هلّق مستعدّ وقفها، بس بدي توعدني بشي..

- إذا تركت التعاطي، فأنا مستعد لوعدك بأي شيء..

- ليس لدي أي صديق حقيقي، لا تتركني..

- إذا تركتها، سأكون معك دائمًا، وأفتخر بصحبتك وصداقتك.. ولكن، هذا الطريق شاق، ويحتاج إلى صبر، هل ستصبر؟

- هي وعد أمامك وأمام الله، أن أتركها نهائيًّا، ولا أرجع إليها

باركت هذا الوعد، وأردفت عليه:

- إذا شعرت بالضعف، فاتصل بي مباشرة لنتحدّث، وإن كان لدي وقت سآتي إليك، لأجعلك تنسى ما أنت مقدمٌ عليه..

قال متحمّسًا:

- اتّفقنا، والله على ما نقول من الشاهدين..

- وأيضًا، سنحتاج إلى معونة طبيّة، ما رأيك بذلك؟

- هل هذا ضروري..

- جدًا، ما رأيك أن أتواصل مع أصدقائي في معالجة الادمان، لنأخذ موعدًا، وربّما نأخذ خالد معنا..

- أبو الخِل زلمة قبضاي، وبيستاهل كلّ الخير.
- على بركة الله، سأتّصل بهم، ونرى ماذا يمكننا أن نفعل، نحن الآن في معركة ضد الإدمان.. إيّاك أن تستسلم!
وافقني، وعيناه تلتهب حماسةً، ثم اعتذر للذهاب إلى المطبخ، بعد أن اكتظ المقهى بالزوار..
واعتذرتُ منه أيضًا للإنصرف لبعض أعمالي، على أن نلتقي غدًا في نفس الموعد، لنكمل ما اتفقنا عليه.
شعرتُ بأنني **انتصرت**..
لم تكن معركتي ضد التعاطي وحسب،
بل ضد أن أغدو شاهدًا صامتًا على رجلٍ ينهار..
كمرافق، لا كمنقذ،
أحفر معه طريقًا نحو الضوء!

١٩

باب السراب

خيطٌ من الذاكرة!

كانت الحياة تتقافز على حبل الأيام والسنين، تترك خلفها حُطامًا هنا، وركامًا هناك.. قصورًا مزهوةً بالغرور، وبيوتًا مسكينة تدافع عن لُقمة عيشها.

بين هذا وذاك... كان يقف **"زياد"**، كمن عبر الزمن بأكمله، فعايش حُلوه حتى نهايته، وبقي وحيدًا يواجه مرارته..

نساء الحي يتغزّلن بجماله، ورائحة عطره، وأناقته، وسياراته! حيث كان حلم الرجل الطاعن في الطموح، أن يمتلك دراجة نارية، فكيف بثلاث سيارات، وبيتٍ واسعٍ، بإطلالة رائعة على وادي الشريعة، ذلك الحي الذي يقطنه أغنياء المدينة فقط!

ترك المدرسة، والتحق بالمنطقة الصناعية، فتعلم ميكانيك السيارات، وأبدع فيها أيما إبداع، رغم المشقة، وصغر سنه..

صارت خبرته تفوق خبرة الكبار، مع عقله الذكي الناضج اجتماعيًا، فتفجّر له كنز من المهارات، كان من أهمها: كيف يكسب المال، ويتمتع به لأقصى درجة!

ثم توجه للعمل مع شركة لنقل المسافرين، وبعد انتهاء ورديته، يعمل سائقًا على تكسي عمومي، ضمن أحياء مدينة حماة وضواحيها، بالإضافة إلى الرحلات الترفيهية الخاصة.

وأخيرًا.. عمل مع أخيه، في توزيع البضائع والملابس، التي كان يصنعها أخوه في مشغلهم الخاص..

سفريات متنوعة، رحلات وفنادق فارهة، سهرات خاصة، والكثير الكثير من المال والحب، إلا أن شيئًا غريبًا، كان يُميّزه عن باقي الفارهين:

أنه يتمتع لا ليستمتع، وإنما ليكتشف أي المتع يستسيغها أكثر من غيرها.
فجرّب المشروبات الروحية، لم تعجبه، فتركها.
جرّب الحشيشة، لم تعجبه، فتركها بعد أول صاروخ..
جرّب الأصدقاء بجميع طوائفهم، وعندما لم يُقنعه أحد استقر على صحبة نفسه..
هل كان ذلك بدافع البخل؟
إطلاقًا، ويشهد لكلامي، ذلك الرجل الذي التقى به في إحدى الأحياء القريبة من منزله، وقد كان يبحث عن رجل يستدين منه بعض المال.. فجمعه القدر مع زياد، أو أن الناس أخبروه بأن يذهب إليه. فلما التقى به، أخبره بحاجته، وقد كان مبلغًا ماليًا ضخمًا، فأعطاه المبلغ مباشرة دون أي تردد!
قد يخطر في بالك: كيف يحمل معه هذا المبلغ الهائل من المال؟
نعم، لقد كان يحمله، ولديه ما يفوقه أضعافًا مضاعفة!
فقد سمعت تلك القصة، لاحقًا، على لسان صاحبها، وأيضًا، سمعتها من زياد نفسه، عندما كان يحدثني عن حياته السابقة بدافع التذكر، وكأنه يقول لي: **"انظر، لقد كنت هناك، تنفست الحياة بكل مباهجها، وامتصصتُ رحيقها حتى النخاع.. ولكن لم أشعر بالسعادة ولا بالراحة، فتخليت عنها، إلى أن جاء الوقت الذي احتجتها، فلم أجدها!"**
ثم يتابع:
يمكنني الحصول عليها من جديد، كل ما أحتاج إليه، سيارة، وبستة أشهر، أستطيع أن أجعلها سيارتان، وزوجة رائعة!

شهريار، يُطلّق!

سألته:

ـ ماذا حصل مع آخر مرة تزوجتَ فيها؟

أخذ نفسًا طويلًا من سيجارة أشعلها مباشرة بعد التي رماها، وقال:

- ولا شيء.. قلتلها طولي بالك شوي..

- إي..

ـ ما بعرف شو كان عم يصير معها، فريد.. مرات الواحد، بده شوية وقت حتى يركز، هي ما تخليني ركز بنوب!

ـ شلون يعني؟

ـ والله ما بعرف...

ـ كيف تركتك؟

ـ كل الليل وت وت وت وت براسي، كيف بدي روح عالشغل وأنا ما نايم؟

مرات، كنت بغيب الصبح شي ساعة أو ساعتين، وارجع عالبيت حتى ارتاح ونام شوي، ما بلاقيها!

ـ شو كنت بتشتغل بوقتها؟

- ع التكسي..

ـ يعني ما تلاقيها بالبيت؟

ـ بتروح لعند أهلها.. أو أهلها بيجو لعندها، بيقعدوا يوم يومين، أنا قلت لحالي يلا معليش بيتسلو مع بعض، بس ما بعرف...!

ـ يعني هي راحت ولا أنت تركتها؟

ـ لما رجعت من الشغل، ما لقيت شي بالبيت، لك آخدين كل شي، حتى الصحون!
ـ أوف.. وشو عملت؟
ـ ولا شي.. قلت لحالي بعد شوي بترجع، يمكن باعتهم وبدها تجيب غيرهم!
المسا.. اتصل أبوها، قال تعال لعنا عالبيت، ضروري!
ـ ورحت؟
ـ قال: ما بدها تكمل معي، بدها تطلق!
ـ أوف!!
ـ قلت لها، متل مابدك، أهلها جايبين شيخ وشهود حتى طلقها مباشرة..
ـ وطلقتها!
ـ ما في غير هالحل..
ـ أي...
ـ رجعت عالبيت ونمت!

بيت منحوس

كنت أستمع لتلك القصة، وأنا أسحب منه الكلام سحبًا.. أخشى أن يتوقف في منتصف القصة كعادته، عندما لا يعود لديه رغبة في الكلام، أو ببساطة عندما يجوع!
ـ نمت يا زياد؟ بعد كل هالشي؟
ـ هي هيك بدها.. شو لازم اعمل..
ـ ما تزوجت مرة تانية؟
ـ لا والله راح البيت من بعدها..

- شلون راح.. بعته؟
- أي بعته..
- منيح، عالأقل بتستفيد من حقه..
- فريد، البيت منحوس!
- ليش منحوس؟
- كانت الدنيا كوانين، برد وشتا وبرق ورعد..
- هي بعد الطلاق؟
- بعده بشي أسبوع أو شهر ما بعرف.. كنت نايم، سمعت الجيران عم يدقوا الباب بنص الليل، لما فقت، لقيت الدنيا كلها هابّة!
- أوف، من شو؟
- مسكت الحرام اللي كنت متغطي فيه، وطلعت من البيت..
- أوف، والجيران؟
- اتصلوا على الإطفائية، وما اجت إلا بعد ساعة، كانت النار ما مخلية ولا شي بالبيت!
- يا الله!
- كل البيت راح، لك حتى البرادي، الحيطان كله أسود!
- الله أكبر!!
- رحت على بيت أهلي، بالحرام اللي كنت متغطي فيه..
- أكيد لابس تيابك؟
- أنا ما بحب نام بتابي، متعود نام بالزلط!
- وكيف صار الحريق؟
- كنت نايم، ومشغل الدفاية جنبي، يمكن إجى الحرام عليها، وأنا مو منتبه..

- أكيد، النايم شلون بدو ينتبه!
- وكل شي راح..

صوتٌ وصدى

بعد يومين..
التقيتُ بأبي غالب، الذي طلب مني أن نلتقي على باب المقهى، لنذهب بالسيارة إلى مكان أكثر هدوءًا!
من ذلك المكان، المحاذي للقلعة، المطلّ من بعيد على ناعورة الجسرية.. سألته، وقد بدا حائرًا:
- هل ما زلت تسمع تلك الأصوات؟
أجاب بحزن غاضب:
- خاصّة آخر يومين، زادت أكتر، عم يجي ببالي إني أضرب الناس، أو أعمل مشاكل، معقول هاد هو أحمد؟
- عم تعمل الطريقة اللي قلتلك عليها؟
- أصدّك إني اكتبهم واحرقهم؟
- إي..
- عم أكتب كل شي، بس ما عم استفيد، ما بعرف شو هي الأرقام والحروف، ومرات بتخيّل صرامي بالسما، ومرات بقول كلام كلّه كُفر يا أستاذ!!
أنا ما هيك، شو اللي عم يصير معي؟ ما بعرف!
تابع شجونه:
- بحياتي ما كنت فكر أوذي حدا، بالعكس، أحمد بيساعد الناس، وبيوقف مع الضعيف ومع الحق، أحمد ما هيك أبدًا!
- أعتقد أنه هذه الأفكار ليست من عندك، فأنا أعرفك جيدًا،

ربما تكون وسوسات وشيطانيّة، وأريد التأكد منك: نحن على وعدنا، أليس كذلك؟

أجاب بعزم:

- بالتأكيد، صرلي يومين ما عم أشرب أي شي، بس دخّان..

- ممتاز، وبالنسبة لهي الأصوات، شغلتها سهلة، أنا تواصلت مع جمعية الإدمان، روح لعندهم، خلي ياخدوا معلوماتك، وتبدأ بالعلاج، وتأكد إنو الموضوع سري، وما رح تتسرّب أي معلومة عن بياناتك الشخصيّة!

قال متردّدًا:

- يعني أكيد هاي الجمعية موثوقة، ما بدي روح واتورّط بسين وجيم!

طمأنته:

- ما تخاف، وأنا بحاول إني كون معك، بس الأفضل تروح لوحدك، متل ما قلتلك، الموضوع بدّه شوية وقت..

كان ينظر إليّ، وكله إيمان وثقة بكلامي، ثم أطرق رأسه قليلاً، وقال:

- أنا تعذّبت كتير بحياتي، معقول اقدر ارجع لطبيعتي، وصير حب الدنيا، والحياة، والشغل، وأهلي؟

أهلي كتير تعذّبوا معي..

دولة داخل دولة

- احكيلي شوي عن أهلك، أبوك شو بيشتغل؟ وجدّك كيف علاقته معاكم؟ وكيف الباشا صار باشا؟

تبسّم عند سماع اسم جدّه، وقال:

- من أيام الثمانينات، بوقت ثورة الإخوان على الحكم، كان الحيّ عنا مليان زعماء، حتى الدولة ما كانت قادرة تدخل، بسبب الأحياء المتفرعة، فاستعان الجيش بجدّي، الذي صار يعطيهم أسماء الموجودين بالحي، والجيش بطريقته يوصل لهم ويعدمهم.
ثم صار جدي الذراع الأيمن لرئيس الفرع، وبعدها تطورت علاقتهم، ووصلت للأعمال تجارية، من ضمنها تجارة الممنوعات، وهيك صار الباشا..
تابع كلامه:
- ولكن، رغم كل شي، قلبو طيب وبيساعد الناس، اللي عنده حدا مسجون أو مفقود، يلاقيهم، ويطالعهم من السجن، متل ما بتعرف، مافي شي مجاني.
بنفس الوقت، ما كان يتردد أبدًا في قتل كل من يخالفه، أو يخطئ معه، حتى لو كان أقرب الناس إليه..
تخيّل، إنه مرّة زت قنبلة على ابنه!
أجبته، مصعوقًا:
- ابنه!!
- عمي، ايده لساتها مشلولة، بسبب الاصابة..
كان أبي وعمّي يحكولنا عن قسوته وهم أطفال، من يُخطئ منهم، يُعلّقه على شجرة من رجليه، ليتدلّى رأسه إلى الأرض، ويتركه نهارًا كاملًا، دون أن يجرؤ أحد على الاقتراب منه..
وأحيانًا، يحبسهم في غرفة الحمّام، لأيام طويلة!
قاطعته:
- هل يعيش معكم اليوم في نفس البيت؟

- نحن نعيش في بناء يتألّف من ثلاث طوابق:
في **الطابق الأول**: يسكن جدّي، ومعه زوجته الثانية ـــ الأولى قد ماتت ـــ ومعه عمّي الصغير.
وفي **الطابق الثاني**: يعيش عمّي الذي أخبرتك عنه، أما في **الطابق الثالث**: فنعيش أنا، وأمي، وأبي، وأخي وليد..
- ومقهى المأموريّة؟
- نحن نعمل هناك بأمر من جدي..
- هل المقهى ملك له؟
- بأوراق رسميّة، لا، ولكن بالسلبطة، يأخذ من صاحبها أتاوات شهريّة، كما أن له حصة في الجلوس فيها، هو ومن معه، دون أن يدفعوا شيئًا..
ويضيف:
- إنه رجل جبّار، رغم تقدّمه في السن..
- هذا فظيع يا أحمد، وأنت، كيف علاقتك مع أبيك؟
- أبي يعمل بعيدًا عن جدّي، وعلاقتي معه جيدة، رغم أني لا أراه إلا نادرًا..
- هل كان قاسيًا معك عندما كنت طفلًا؟
- أبي لم يكن يملك من الأمر شيء، العقوبات كنّا ننالها من جدي.. وأحيانًا من أبي.
- هل تتذكر بعض الأحداث؟
- مرَّة، حبَسني مع ابن عمّي في الحمّام، وأحيانًا كثيرة، يضربنا بالقشاط، أمام أنظار أبي وأمّي!
- ألم تكن أمّك تدافع عنك؟
- إطلاقًا... لا يجرؤ أحد على كسر كلمته..

- هل تحبّه؟

- الآن؟ نعم، أنا أحبّه، ولكن أكره تصرّفاته، وأحيانًا أجد في تصرّفاته منطق وحكمة، ولطالما أنقذني من مواقف صعبة، يخرجني منها مثلما تخرج الشعرة من العجين..

- هل يعلم أنك تحشّش؟

يضحك، ثم يقول:

- هو الذي علّمني!

مصدوماً:

- حقًّا؟

- مرات، بتجيه بضاعة، بس مو متل ما بده، فينادني، قائلًا: جربلي هالبضاعة..

قاطعته مستفهمًا:

- وما هي؟

- بتجي متل المعجون، بتكون زيتية، وفي منها ألوان، حسب التخمير، إما بتكون حمرا نكهتا قوية، ومتل ما بيقولوا: أول عصرة، الناس بتسميها: زبيب، وفي نوع تاني، لونه أخضر بيسموه: متّة.

سألته مستفهمًا:

- المتّة.. المتّة!؟

- هيك بيسموها، لأن لونها أخضر وبتجي يابسة، هي مادة كيماوية، بيخلطوها بمواد مخدرة، بتكون أقوى من الزبيب..

وكأنه قد تذكر شيئًا مهمًا، قال بعد أن أخرجها من جيبه:

- انظر، مثل هي!

من بين راحة يديه، نظرت إلى تلك الكتلة المعجونة، حمراء

لون مشوبة بالصفار.. سألته غاضبًا:

- هل نكثت بعهدك؟

- إطلاقًا، ولكن جدي أعطاني إياها، لأنها لا تعجبه..

خطفتها من يده، أتفحصها بحذر، سألته، بعد أن دسستها في جيبي:

- وما الذي كان يعجبه؟

أجاب بهدوء:

- الأبيض!!

- الأبيض؟ و ما هذا أيضًا؟

- الهيروئين، تأتيه بكميات كبيرة، بياخد حاجته، ويوزع على أصحابه، للتجارة.. يضحك، مضيفًا:

- مافيا متكاملة!

أرتجف في داخلي، من كمية القذارة التي يتمثّل بها هذا الشخص الملقب **بالباشا!**

قلت له مختبرًا:

- وأنت، تُحب أن تكون مثله؟

أجاب بمكر:

- أنت شايفني متله؟

ثم تابع، بعجز:

- مستحيل كون مثله، ولكن، كما قلت لك: أنا أحترمه ولا أستغني عن وجوده، إنه جدّي، وهو يحبّني، ويفضّلني على كلّ أولاد عمّي، وحتى أولاده!

- لأنه يعتبرك البطل، والوريث الرسمي لهذه العائلة..

- أنا أريد أن أجد "أحمد"، ما بدي أي شي تاني!

- سأساعدك بكل ما أستطيع، واسمح لي بأن أحتفظ بتلك القطعة لأرميها بعيدًا عن ضعفك..
- كن حذرًا، ستقع في مشكلة كبيرة، إن رآها أحد معك!

الأغذية الثلاث

نظرتُ إلى الأفق البعيد الممتد إلى تلك الناعورة الدائرة، يخطر في بالي الكثير من الأحاديث، إلا أن حديثًا واحدًا تفلّت مني:
- هل تعلم يا أحمد، أن الإنسان مكوّن من ثلاثة جوانب؟
- شلون يعني؟
- الروح، والعقل، والجسم، ولكل واحد من هذه الجوانب غذاء خاص به..
- كيف؟ شو هو الغذاء اللي لازم آخذه لكل واحد؟
- جسدك: بأن تُدخل عليه الصالح والمفيد، وأن تُبعد عنه كل ما يُؤذيه من طعام وشراب وهواء..
- والثاني..
- عقلك: تعتني به من خلال مراقبة أفكارك، وتُنميته بالقراءة والاطّلاع، وتختبر معلوماتك وكل ما توصّلت إليه كل فترة، حتى لا يدخل إليه ويستقر فيه، إلا ما هو سليم المنطق..
- والروح..
- روحك: من خلال الخلوة مع نفسك، والدعاء إلى الله، والصلاة له، وقراءة القرآن، ومجالسة أصدقاء الصلاح..
إذا أحسنتَ إلى هذه الثلاث، ستتحسّن حياتك خلال فترة قصيرة جدًا، وستجد أحمد الذي تبحث عنه.
- يعني لازم اهتم حاليًا بهدول الثلاثة: الجسم، والعقل،

والروح؟

- بالتأكيد

- والشيطان؟

- الشيطان سيبقى موجودًا، يُوسوس لك، يُضعف من عزيمتك، يجعلك تخسر في رهانك مع إصلاح حياتك..

قال ساخطًا:

- لعنة الله عليك يا شيطان!

الله يحب أحمد!

- أريد أن أسألك سؤالًا آخر..

كان شاردًا، ولكنه أجاب: **بالتأكيد..**

- هل تعرف ما هو الإحسان؟

نظر إلي، يحاول أن يتذكّر:

- الإحسان... أن تُحسن للناس، أو هيك شي..

قلت له مشجعًا:

- هذا نصف الجواب، الإحسان: هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك..

ظل يردّد الجملة، قائلاً:

- سامعها من قبل.

تابعت:

- أن تشعر أن الله يهمّه أمرك، الله يحبك أكثر مما تتوقع يا أحمد.. يراقبك، لا ليُعذّبك، فالله ليس جلّادًا يلاحق ضحاياه، يُراقبهم لأنه يريد مصلحتهم، يريدهم ألا يتورّطوا أكثر في المعاصي، لأن المعصية من جنود الشيطان الخفيّة، التي تجرّك

من مستنقع إلى مستنقع آخر!

أجاب بذهول:

- يعني... الله بحبني؟

- الله يحبك جدًا يا أحمد..

تأمّل كلماتي الأخيرة بعمق، ثم قال متحمّسًا:

- الله ليس جلّادًا ولا سجّانًا، الله غفور، رحيم، كريم!
الله يُحب الجميع، الله يُحب أحمد..

سرٌّ، وشريك!

أثناء تلك الإيمانية العالية، ألمح شبحًا، عرفه أحمد أولًا، فقال ضاحكًا:

- هذا خالد، زمّر له، خلّي يطلع معنا..

من خلال فلاش السيارة، أعطيته إشارة، فتقدّم نحونا، شامخًا بضحكته، وبصدره العالي:

- يا هلا بالشباب، منوّرين والله، لك الأستاذ بحيّنا!!
ليش ما خبّرتوني إجي معاكم بهالاجتماع الحلو..

أشار له أحمد:

- طلاع، طلاع!

ثم تابع بنبرته الساخرة، التي أصبحتُ شريكًا في معرفة سرِّها:

- إنت ما بدّك عزيمة يا أبو الخِل..

كان الجو غامرًا، بعد أن انضمّ إلينا خالد، قلت لهما:

- ما رأيكما في أن نذهب إلى المقهى؟

وافقا على الفكرة، فانطلقنا إلى المأمورية، جلسنا إلى طاولة واحدة، فانضمّ إلينا وليد قليلًا، ثم غادر ليتابع عمله..

كان خالد مشاغبًا، يضحك لأقل نكتة، أوغمزة، أوإشارة، وكنت أجلس بينهما، كمراقب عام في نهاية دوام إداري، عندما تذكّرتُ أمر دمشق، فسألتُ خالد:

- هل ما زلت تسافر إلى دمشق؟

أجاب:

- أهلي لمّا عرفوا إنو ما عندي جامعة، ما عاد خلّوني سافر، حاليًا قاعد بالبيت، عم ساعد أبي بالمحل، ومرات بجيب دخان، وبيع لحالي بالطريق..

- شلون يعني؟

أشار بيده متعجبًا:

- يعني عادي، بالطريق!

- اشرحلي..

- بوقف عالطريق، ومعي كروزات دخان، اللي بدّه، بيوقف وبيشتري..

- طريق الكورنيش؟

- وبكل مكان، عادي!

- المهم تشتغل، أحسن من القعدة يا أبو الخِل..

في ضيافة القدر

ثم.. تشاء الأقدار أن يتواطأ كل شيء معك، أوعليك!

في تلك اللحظة بالذات، لم أعد أعرف: **هل كانت معي... أم عليّ!؟**

في تمام الساعة التاسعة مساءًا، التفتت عيناي وأذناي، إلى صوت **"تشحيطه الكسول"**، يزحف بهدوء ثقيل، نظره شاخصٌ

إلى الأرض، يلمح من حوله بطرف عينيه، رغم كل الأصوات المتعالية من أجله، فلا يرد السلام:

"يا هلا بالمعلم... من زمان القمر ما بان!"

أما أنا، فكاد قلبي يُصفّق من شدّة فرحي بهذه المصادفة..

لم ينتبه لوجودي بادئ الأمر، رغم محاولاتي لاستدراجه، فأرسلت له وليد، فأجابه بكلمة واحدة لا غير: **بعدين، بعدين!**

التفتَ إليَّ أخيرًا، وأشار بيده من بعيد، غير متحمس لمشاركتي الطاولة، تساءلت بيني وبين نفسي: ما سبب هذا البرود، هل هو غاضب مني؟

قطع عليّ حبل أفكاري صوت خالد، الذي بدا متفاجئًا:

- هي أبو الزوز... بتعرفه أستاذ؟

كان سؤالاً مزدوجًا، من خالد، وأبوخالد، ولكن الذي نطق به كان خالد..

- أكيد بعرفه... زياد رفيقي!

ضحك الاثنان، وقال أحمد:

- رفيقك رفيقك؟ أنت بتعرف قصّته؟

- التقيت به قبل مدة، إنه رجل جيد، لديه بعض المشاكل، التي أحاول مساعدته فيها..

قال أبو غالب مستنكرًا:

- بس مشاكل زياد ما الها حل!

استدركت عليه:

- لا يوجد شيء ليس له حل، الطريق مفتوح للجميع، كي يتغير!

أضاف خالد، ضاحكًا:

- زياد..عالأغلب مسلّمها!

- شو يعني؟

- عقلُه رايح بالمرة!

- احكيلي، شو بتعرف عنه..

أجاب أبو غالب:

- كان أزنكل واحد بحماة، وأحلى واحد، البنات بتتمنّى تحكي معاه، فجأة، كل شي راح، وكل شي تغيّر، احترق بيته، باع سياراته، وخسر وظيفته، يمكن هاد الشي أثر عليه، وما تحمله عقلُه، وطَقّ.. صار يمشي بالشوارع، يكفُر، ويسبّ، ومرات يغيب أسبوع، أسبوعين، الله أعلم لوين!

- بعرف هدول القصص... في شي تاني؟

أضاف خالد:

- مرّة لقوه نايم ببيت كلاب!

- بيت كلاب؟

- متل المغارة، كانوا يناموا فيها الكلاب، لقوه نايم هونيك، وحالته حالة: ريحة بتقرف، شعره طويل، ذقنه طويلة، متل أهل الكهف!

اقشعر جلدي لهذه القصة:

- معقول؟

تابع أبو غالب:

- أهله يا حرام، ما خلّوا شيخ، ما خلّوا رقية، ما استفاد شي أبداً، عم يقولوا إنو هاد السحر بيضرب الراس، وخلص، ما بيعود بيرجع طبيعي!

خالد، متذكرًا:

- لك هاد، مرّة كنت طالع معاه بالبومان، لما كان شوفير هونيك، صار يحكي مع المذيعة بالراديو، ويبعتلها تحيّات!

أبو غالب، ضاحكًا:

- أبو الزوز والله قصّة كبيرة، لك شو وصّلو للمذيعة يا زلمة؟

أجابه خالد:

- والله ما بعرف، بدك تسأله، الناس فكّرته حدا مشهور ولا مغنّي!!

أبو غالب، يستمر بالضحك:

- من وين لوين، تخيل أبو الزوز عم يغني!!

أضاف خالد، ساخرًا:

- يمكن من السحر، صار صوته حلو!

أشار أبو غالب، للطاولات من حوله، وقالها على طريقة جدّه:

-هاتوا لنشوف، جيبولنا شي ساحر لهون، حالًا!

خطةٌ، خارج السياق..

لم أملك إلا أن أبتسم مع نفسي لهذه المسرحية، قلت لهم جادًا:

- لا يوجد شي اسمه سحر..

ثم أشرت لأحمد:

- أتذكر قصتك؟ السحر هو الوهم فقط!

- شو وضع زياد لكن؟

- قبل أن أجيبك، أريد أن أسألكما: زياد بيحشّش؟

أجاب أبو غالب نافيًا:

- على علمي... لاء!

قال خالد:

-زياد بعيد عن هاي القصص!

انتبهت إلى زياد، الذي تحرك من مكانه، ليتجه إلى نافذة المطبخ، فقمت إليه، فرحّب بي، ولكن ليس كعادته، سألته:

- هل كل شيء على ما يُرام؟

- يلا شوي، وبحكي معاك..

بقيت واقفًا أنتظره، فقال:

- روح، روح على الطاولة، وأنا بعد شوي بلحقك.

تركته غارقًا في أفكاره ودخانه. بعد قليل، جاء يلبس قناع الابتسام:

- يا هلا بالشباب، شلونك يا خالد، شلونك أبو غالب، يا هلا أستاذ، شلونك، شو شايفك هون؟

- الشباب أصحابي، ومنلتقي هون على طول.

- والنِعم منهم، ومنك، بلا صغرة يعني!

ظلّ واقفًا، أشرتُ له أن يجلس معنا، ولكنه امتنع، قائلاً:

- عندي شغلة، وبرجعلكم، إنت باقي هون أستاذ؟

نظرت إلى ساعتي التي كانت تشير إلى التاسعة والنصف:

- تقريبًا سأبقى حتى الساعة الحادية عشر والنصف..

- لكان.. شوي وبرجع..

وافقتُه على ذلك، ثم عاد وكرّر:

- لا تروح، استناني، حابب أقعد معك ومع الشباب..

- بـانتظارك..

أثناء مغادرته، سنحت في بالي فكرة مجنونة!

تلمّست جيوبي، فلم أجدها، تذكّرت أنها في درج السيارة، استأذنت منهما، ثم عدت حائرًا، كيف أشرح لهما الموضوع،

استثنيت خالد، وأشرت لأبي غالب، هامسًا:
- أريد أن أقول لك أمرًا هامًا، بشرط أن يبقى سرًّا بيننا!
فوافقني، قلت له:
- زياد يمرّ بحالة نفسية صعبة، وهو بحاجة إلى الدواء، ولكن، مع رفضه الدائم له، اتفقتُ مع أمه، بأن أعطيه سرًا، على الأقل لفترة مؤقتة، وسأخبره بالأمر عندما يستقر حاله، فيلتزم بالدواء بنفسه..
رغم تفاجئه من هذا العرض، لم يرفض، وقال مبادرًا:
- هل هو معك؟
- أريدك أن تضعه في فنجان القهوة، أو أي مشروب يختاره..
- سأفعل ذلك..
ناولتنه المنديل الذي وضعت فيه حبة مطحونة للحالات الطارئة:
- أفرغها في الفنجان، وحركها قليلًا..
اعتبرها خدمة إنسانية، عسى الله أن يساعدك، مثلما تساعده!
تأثر بهذه الدعوة، قلتُ له منبهًا:
- ضعها أولًا، قبل أن تملأه بالقهوة، حتى لا تتراكم على وجه الفنجان..
بعد ساعة تقريبًا، رجع زياد، مرحًا، يمازح كل من يمرّ به، وكأنه يلبس قناعًا مختلفًا عن القناع الذي أتى به أول مرة!
سحب كرسيًّا بيننا، قائلاً:
- فكرتك رحت!
- ولو يا زياد، أنا وعدتك..
- قلت لحالي يمكن تكون مشغول، ورحت..

- مستحيل، أنا أفي بوعدي دائمًا!
- على راسي، شو بدّك اضيفنا؟
كانت تلك أجمل لحظة وأكثرها جنونًا، قلتُ بحماس:
- بتشرب قهوة؟
- بشرب..
أشرتُ لأبو غالب أن يُحضِر لنا قهوة، وفي أثناء ذلك، ناداه زياد:
- أبو غالب، ما بدي قهوة..
ازداد الرُعب في داخلي، لكنه أردف بقوله:
- ساويلي شاي!

دعاءٌ، خارج السياق

ارتاحت جوانحي بعد جملته الأخيرة، الشاي أفضل من القهوة في الاذابة!
انتظرت كأس الشاي، أكثر من زياد، تساءلت مع نفسي:
هل سيتحوّل إلى الأصفر قليلًا؟ هل سيكون مُرًّا؟
أعتقد أن طعم الدخان، يُخفّف من أثر الطعام، ويُطفئ بعضًا من نكهته..
عاد أبو غالب، وبيده **كأسان من الشاي**.. وكم كان ذكيًا، عندما أعطى الكأس الذي فيه الدواء إلى زياد، ولم يترك له حرية الاختيار.. عيني مُعلّقة على تلك الكأس الماكثة بهدوء، ناديتها بحرقة وتواطئ صامت:
لا تجعليه يشعر بوجودك، لا تدعي مفعولك يذهب هباءً،
ساعديه على الهدوء والشفاء، ساعديه على النوم!

أُراقبها كـ **حارس أمين..**
أخاف أن تنزلق من يديه، أو ترميها نسمات الهواء، أو أن يحصل أي شيء، يهدر ذلك الشراب السحري..
أنهاه كاملًا، نظرتُ فيه، وقد كاد قلبي يذوب من السعادة، مع ذوبان الدواء في قعر الكأس**!**
وها أنا الآن أنظر إليه، أتأمّل مفعولها يسري في عروقه..
ستون دقيقة، كانت كافية تمامًا، لتجعله يستسلم لنعاسه..
فاستأذن بالانصراف، وكذلك فعلت، أما خالد، فقد غادرنا قبل أن يأتي كأس الشاي..
في تمام الساعة الحادية عشر وخمس وأربعون دقيقة،
اصطحبت زياد إلى بيته، وكانت المرة الأولى، التي لم يؤخرني فيها بدقائق انتظاره..
تركته في الشارع المقابل لبيته، وانطلقت**!**

فتحتُ باب بيتي، وكأنّي أفتحه لأول مرة،
وكأن الأبواب المغلقة في وجه قدري.. قد فُتحت**!**

٢٠

باب الأمل

تخلُّفٌ، وثقافة

في الأيام اللاحقة، كانت حياتي تنتقل ما بين البيت والجريدة والمقهى، لألتقي بأبي غالب، ومعه خالد في بعض الأحيان، وفي كثير من المرات يأتي زياد أيضًا.. تتخلل جلساتنا التأملية، الكثير من الحوارات والضحكات، لقد تعلّقت بهم وبقصصهم، بحياتهم البسيطة العفوية.
كنت أعيش في قصري العاجي، متظاهرًا بأنني من عامة الناس، بينما عامة الناس هنا حولي في هذا المقهى، إلا أنهم يتفوقون، بشجاعة إظهار ما نخشى ظهوره.. وهذا هو جبننا الذي نسجله باسم "الثقافة" ونسجله عليهم باسم "التخلف"..

بدأ أحمد بالذهاب إلى المركز الصحي، وبعد أن رآه الطبيب والمعالج النفسي، وصف له بعض الأدوية. في كل يوم يعد لي الأيام، كطفل يستعجل العيد:
إنه اليوم العاشر...
إنه اليوم الخامس عشر..
إنه اليوم الثامن عشر إنها العشرون
حتى اقترب من إتمام شهر كامل، بعيدًا عن التعاطي..
أما خالد، الذي كان يذهب معه في بعض الأحيان، لكنه لم يشعر بالأمان، ولم يتفتح قلبه عندهم إطلاقًا.. هذا الرجل **المليء بالعادي**، الذي يمر بالكثير من الأمور غير العادية، إلا أنه يصرُّ دومًا بأن كل شيء "عادي"
تواصلت مع أمه لأطمئن عن وضعه الصحي، وعن التزامه

بالدواء، طمأنتني وقالت: بأنه يشعر بالنعاس والخمول، فيتناوله بعد إلحاح شديد، وينام..
زياد، الذي كان يتردّد إلى المقهى، بعد أن تأكد من جلوسي الدائم فيه، يشرب القهوة، أو الشاي، أو الميلو، وقد يتناول معنا بعض السندويشات الجاهزة، لأوصله في نهاية السهرة، إلى المنزل..
آخر مرة أوصلته فيها، لم تكن حالته مستقرة تمامًا..
والسبب: أن الدواء قد نفد، وأمه قد تأخرتْ بالشراء، ولم يكن باستطاعتي الحصول عليه، دون وصفة طبية..

بذرة..

توقفنا قليلًا قرب منزله، وقد عادت تلك **"المسكة الملعونة"**، بالإضافة إلى الكثير من الأحاديث المتقطعة، التي لم أفهم منها شيئًا محددًا، سوى أنه: **لا يستطيع النوم، ويريد أن يعيش مثل باقي البشر، أن يتزوج، أن يكون له أطفال، أن يكون له عمل ثابت، وأن يكون لديه سيارة!**
كادت أن تخطف قلبي تلك الفكرة، وقد هممت بإخباره بها، إلا أنني تراجعت، خشية التورط مع إلحاحه المستمر..
ودعته في تلك الليلة، لأخبر أنور في الصباح، عن فكرتي:
سأشتري لزياد سيارة!
كعادته، لم يُوفّر كلمة لمنعي عن مخطّطي، لكنه استسلم أخيرًا، وطاوعني في خطتي، التي كانت تقتضي: أن أجمع من الموظفين معنا، ومن أصدقائي ومعارفي، مبلغًا أستطيع من خلاله شراء سيارة..

بعضهم دفع بقلبه، بعضهم بيده المرتجفة، وبعضهم اعتذر بعبارات الرواتب والالتزامات..
بعد انتهاء الدوام، انطلقت مع أنور إلى المنطقة الصناعية، في رحلة البحث والسؤال: **نريد سيارة كذا وكذا..**
كل بائع، يدلّنا على آخر، حتى وصلنا إلى رجل لديه سيارة لا بأس بها، عليها بعض المخالفات، إلا أن سعرها مناسب، مع إضافة تلك الغرامات وكلفة التسجيل، ستُصبح سيارة معتبرة..
اتفقنا بشكل مبدئي، ثم ذهبتُ إلى بيت زياد، الذي كان نائمًا نومة العصر.. جررته من فراشه بالقوة، بحجة الذهاب في نزهة قصيرة!

سيرانٌ سريّ

أثناء طريقنا، قال لي:
- مو على أساس رايحين سيران!
أجبته، مورابًا:
- أحتاج إلى بعض التصليحات الخفيفة لسيارتي، لأننا سنذهب إلى منطقة بعيدة..
كان مسترخيًا تمامًا، عندما وقفنا أمام السيارة، قلت له:
- انزل معي..
أجاب ببرود:
- روح لوحدك يازلمة، نعسان، رح استناك هون..
- لا أعرف بأعطال السيارات، أريدك أن تفحصها، وتخبر المسؤول، ما الذي ينبغي عليّ تصليحه..
بعد أخذ ورد، نزل، ليجد نفسه أمام سيارة حمراء، ملطخة

بالكثير من الغبار.. نظر إليها من جانب النافذة نظرة المتفحّص، بعد أن مسح غبارها المتراكم، ثم نادى العامل هناك:

- بكم هي السيارة؟

أجابه الرجل:

- والله انباعت..

يتمتم مع نفسه:

- ها... انباعت، والله منيحة!

سألته:

-هل هي جيّدة لهذه الدرجة؟

- هاد النوع أعطاله قليلة، بس متل ما شايف، بدها صيانة، وما منمرة..

- أتعرف كيف تصلحها بنفسك؟

أجاب بنبرة واثقة:

- أكيد يازلمة، ما في أسهل من هيك..

مفتاح في اليد..

بهدوء، أشرتُ لصاحب السيارة، فرمى المفتاح بين يدي، أمام نظرات زياد المندهشة، وقد تحولت تلك الدهشة إلى ابتسامة عريضة وحماس:

- بدك تشتري السيارة؟

- اشتريتها..

- يعني هي السيارة إلَك؟

- إنها لك..

رمى سيجارته المشتعلة آنفًا، أزاحني بيده عن طريقه، فتح

غطاء المحرك، **دعدع به**، ثم انبطح أرضًا، ليعود إلى المقود، يصيح:

- التبريد فيها شغّال؟

أجاب الرجل:

- اي شغال، بس بدو غاز..

- يعني شغّال أكيد؟

- إي إي، شغّال..

يتأملها بنهم، وكأنّه يرسم مخططًا شاملًا، ثم سأل الرجل:

- بأديش بعتها؟

- اتفقتُ مع صديقك بكذا وكذا..

نظر إليّ، وأعاد النظر إليه، قائلاً:

- لا يا زلمة، شو هالسعر الخرافي، السيارة صارلها واقفة قرن.. بدها شغل بالمحرك والكهربا، وعم تقول بدها غاز، خلّي ننزل بالسعر شوي، حتى ناخدها اليوم..

أثناء مشارعته للرجل، كنت أنظر إليه، وأبتسم لشدة فرحه.. استطاع أخيرًا، أن يُنزل الرجل بسعرها **لنصف** ما اتفقنا عليه، فسلمتُ المال، وأعطانا الأوراق الخاصة بالسيارة، قائلًا:

- السيارة بس تطلع من عندي، ما الي علاقة فيها، بعتك عالبحر، ونصيحة: لا تمشي فيها بدون وراق، ظبطها، وخليها تنجح بالفحص العام، وبعدين بتفرغها باسمك..

رقصة، على أنغام الميكانيك!

كان زياد، منشغلًا بمحاولة تشغيلها، ينادى علي كل برهة:

- عطيني شويّة بنزين، عطيني شويّة زيت..

ينفخ فيها، يعبث هنا، ويحرك هنا، ثم يصرخ:

- أستاذ... شغّل!

أشغّل، فتئِنُّ السيارة بعض الوقت، يصيح:

- وقّف، وقّف!

ليصرخ بعد قليل:

- شغّل... شغّل!

ينتقل من تحتها إلى أمامها، يعبث بهذا الشريط، بذاك البرغي، إلى أن انتفضت السيارة نفضة قويّة، دار المحرك إثرها، يمخر دخانه الأسود، وكأنه جثة هامدة، دبت فيها الحياة من جديد!

وقفتُ مصدومًا، من خبرته اللامتناهية، صاح الرجل مبهوتًا:

- الله حيّو، لك والله أنت معلم أصلي، هي السيارة صارلها سنة، ما حدا قدر يشغّلها، ولا يعرف شو مشكلتها!

نزل زياد، مزهُوًّا، قال لي:

- أنا رح جربها، اشتريلي كم ليتر بنزين، وعلبتين زيت..

عندما رجعت، كان قد فتح العنفات المتصلة بعلبة الزيت والماء والبنزين، أضاف لها الزيت، ثم صب البنزين، وبعدها الماء، كلٌّ في مكانه المخصص، وترك السيارة لتهدر بهدوء، ثم انتقل لفحص الكهرباء، الإضاءة الأمامية والخلفية، إشارات الاتجاه، وكل شيء.. نادى على الرجل، الذي لم يفق من ذهوله:

- عطيني مفتاح تلتطعش، وعطيني بِنْسَة، وعندك بوجية،

وشريط..

بعد ساعتين تمامًا، كانا نسير باتجاه بيت زياد، وأنا خلفه، متعجبًا من قدرته الخارقة، وعزمه الذي لا يفتر!

كل ما تبقى الآن، حملة تنظيف شاملة، ومن ثم، تجهيزها لاجتياز الفحص العام، وتسجيلها باسمه، ليعود إلى عمله.

بادرني قائلًا:

-هلئ صارت الحياة الها طعم..

أجبته بابتسامة، ثم حضنته:

- المهم الآن، أن تكمل الفحوصات اللازمة، ثم لنذهب معًا لتسجيلها باسمك، لن يستغرق الأمر أكثر من ثلاثة أيام.. خطوتنا القادمة، أن نبحث لك عن عروس!

بدا شاردًا، ضاحكاً، مشغولاً، مليئًا بالأفكار، تركته مع فرحته:

- سأذهب إلى أمك، لأخبرها، وتفرح لفرحك...

- ماشي.. أنا رح ابقى هون شوي..

فرحتها لا توصف، وكذلك فرحتي عندما أخبرتني بأنها أحضرت الدواء، ناولَتني ظرفًا من العلبة، قلت لها:

- لن أراه هذا المساء، فأرجو أن تتدبّري الأمر!

وافقت على ذلك، قائلة:

- الحمد لله، بعد ما صار ياخد الدوا، صار ينام، وكمان صار ياكل ويشرب معنا، متل العادة!

تلك الأخبار السارة **تهطل على قلبي**، ليزهر بها ألوان من الفرح والسعادة الغامرة..

صار كل شيء **كما خططت له تمامًا!**

٢١

باب الفوضى

مرآة منحرفة

متى سأجد نفسي؟
هذا السؤال.. يُصبح أكثر خطورة، خصوصًا بعد تلك المحادثة الغريبة:
- نفسي عم تحاربني، بدها ياني أرجع للحشيش..
سألته سؤالًا اعتباطيًا:
- يعني، نفسك شي مختلف عنك؟
- ما بعرف..
ثم، كمن وجد الجواب أخيرًا:
- آها، يعني نفسي هي أنا..
وأضاف:
- النفس أمّارة بالسوء، بدها ياني ارجع للتعاطي، بس مين نفسي؟ نفسي هي أنا، أنا يلي هو أحمد!
أكملتُ عنه:
- أحمد، الذي هو الحاضر والماضي والمستقبل، أنت تصنع نفسك من خلال أفكارك، وأفكارك تصنعها من خلال العلم والمعرفة، والاختلاط بالناس الصح، وهذا الشي، حاليًا عم نركّز عليه..
في تلك اللحظة، صحتْ في نفسي فكرة مرعبة:
هل فهمني بتلك الطريقة!
عندما كنت أقول له: ابحث عن نفسك، هل كان يبحث عنها في الشارع؟ كيف لي أن ألاحظ، أنه كان يأخذ كلماتي المجازية على محمل الحقيقة الحرفية؟ هل كان يفتش عنها، وكأنها

غرض ضائع!!
كل تلك الأحاديث التي كنّا نقضيها بالساعات، وقد كنتُ أفسِّر شروده، على أنه تأثرٌ بمعاني ما أقول.. نعم، لقد راودني ذلك الشك أحيانًا، عندما لم أكن أسمع منه تلك **الأها**، التي ينطق بها، من أُشعِلَ النورُ في عتمته.. كانت تلك هي الحلقة الناقصة، في كل أحاديثنا!

تخلية.. وتحلية

نظرت إليه بإحباط، قاطعته قائلًا:
-اسمع يا أحمد، أنت قطعت عهدًا بعدم العودة إلى التعاطي، صحيح؟
- أكيد..
- المرحلة القادمة مهمة جدًا، أنت في الطريق لاجتياز التخلية قبل التحلية..
قلت شارحًا لنظراته المستغربة:
- على الإنسان أن يتخلّى عن الأشياء التي تضره وتؤذيه، لينتقل بعدها إلى الغذاء والدواء المفيد لترميم صحته..
سألني:
- يعني... إمتى ممكن لاقي أحمد؟
- لا أدري، ولكن ليس قبل ستة أشهر من العلاج..
- إنها مدة طويلة، ولكن لا بأس، كرمال أحمد، رح أعمل المستحيل، المهم أن تبقى معي.
- أنا معك، وسأزورك كل يوم في المقهى.
سألته، متحريًا:

- ما أخبار أخيك وليد؟ هل هو على نفس الممشى؟
(وأشرت له بيدي إلى فمي)
قال نافيًا:
- وليد إنسان مستقيم، دخان ما بيدخّن، وكل الوقت بالجامع، والقرآن، والأناشيد..
- الحمد لله، أن تأثير جدّك لم يصل إليه!

في الطريق إلى النور..

في تلك الأثناء، دخل خالد إلى المقهى، وقد كان قريبًا من السوق، يبيع علب الدخان، سلّم علينا، وجلس **شبه غاضب،** سألته، فأجاب:
- ولا شي، تعبان شوي من الشغل..
أخبرته مباشرة:
- غدًا سيذهب أحمد إلى المركز، هل ستذهب معه؟
نظر إلى أحمد نظرة فيها استهزاء، إلا أن أحمد قابله بنبرة فيها الحزم:
- إي والله يا أبو الخِل... أنا رح تابع بالمركز، ولازم أنت كمان ما تنقطع، أنت إنسان منيح، قلبك طيّب، والناس بتحبك، ما بيصير تضيع حياتك على شي فاضي..
أجاب بثقة:
- إذا أنت رايح، بروح معك..
قبل أن أغادر المقهى، تحدثتُ مع أبو غالب عن زياد، وأعطيته منديلًا فيه حبّة مطحونة، قلت له:
- كن حذرًا!

كان في الوقت متسع، فذهبتُ أبحث عنه في الطرقات..
السعادة تملأ خاطري، غدًا، سأنتهي من المهمّة الأولى، لا، ليست الأولى وحسب، إنها الأولى والثانية!
لم أجد زياد، رغم محاولاتي الكثيرة، فرجعتُ إلى البيت..
على الطاولة.. وضعتُ رأسي على يدي المستندة إلى الكنبة، في لحظة تأمل غامضة:
هل دسّ الدواء في الشراب، أمر له مبرر أخلاقي؟
أم أنه مجرد وهم منقّح بنيّة طيّبة؟
كنت على يقين، بأن الاستسلام أسوأ من الخطأ..

خطة بديلة

بعد أيام، تواصلتُ مع أم زياد، فقالت: **إنه يتأخر كثيرًا ليعود إلى المنزل، فتترك له الطعام على طاولة المطبخ، ليتناوله عند عودته..**
- والسيارة؟
- عم يصلحها، وينظفها، ويمكن بكرا أو اللي بعده يروح يسجلها.
- هذا رائع، والدواء؟
- أضعه في السلطة، أو في زجاجة من العصير، فيشربها..
- هذا مطمئن..
- لقد أصبح أهدأ، ولكن في بعض الأحيان يكون متعبًا جدًا، وأحيانًا أخرى يكون في حالة من الضياع الهائج!
من خلال حديثها عن تعبه، تنبهتُ إلى احتمال تناوله الدواء

مرتين في نفس الوقت من اليوم، فاتصلت بصديقي الصيدلي، وأخبرني: **بأن الأمر لا يستدعي القلق، ولكن في بعض الحالات، قد يسبب: نعاسًا شديدًا، أو أرقًا شديدًا، مما قد يؤدي إلى هيجانه..**

بناء على هذه المعلومات، أخبرت أمه بأن تعطيه الدواء في البيت، ثم أخبرت أحمد بأن يتوقف..

كلابية بيضاء

رن هاتفي، فكانت أم خالد على الخط:

- دخيلك يا أستاذ... الحقني!

- خير؟ شو صاير؟

- تعال بسرعة.. وبتشوف!!

استجبتُ لها، وذهبت من فوري، كان كل من في البيت **متوتّر**، سألت:

- ما الأمر؟ أين خالد؟

قالت، بقلب مفجوع، وعينين كالجمر:

- صار له يومين برا البيت، سايح بالشوارع، لابس كلّابية بيضا، وعم يحكي كلام شروي غروي!

توقّفت ملامحي وعقلي عن استيعاب ما تقوله، أعدت السؤال:

- كيف؟ لم أفهم؟

- كان هادئًا، ولا في أحلى من هيك.. فجأة، قال: بدي روح صلي الفجر بالجامع، أعطيني الكلابية البيضا!

كنتُ قد استيقظتُ لتوّي، على سماع **صوت ترتيله للقرآن**، يقرأه بصوت عالٍ و**بطريقة مكسّرة جدًا**، مع نبرة حزينة

متلوية، وأحيانًا بلهجة آمرة، قلت في نفسي: **الله يهديك، وينوّر دربك..** جهزتُ له الكلابية التي طلبها، ارتداها وذهب إلى المسجد، ولم يعد من بعدها..عندما نزلتُ لأبحث عنه، سمعتُ بعض الأقاويل من الجيران: **كان في صلاة الفجر**، يصلي في الصف الأول، خلف الإمام، وينوح بطريقة مزعجة، حتى أصاب الإمام التوتر من بكائه ونحيبه..

بعد الصلاة، قام يخطب بالمصلّين، وينصحهم، بكلمات غير مفهومة، ويعترف لهم بأنه كان من المدمنين على الحشيش، إلا أن الله قد تاب عليه، وهو الآن في رسالة من الله لهداية البشر**!** تحدّث لنصف ساعة، والناس تضرب كفًا على كف، تعجبًا من هذه الطريقة غير المتوقّعة، من الشخص غير المتوقع**!**

بعد تلك الخطبة، أسند ظهره إلى الحائط، والناس ما بين مصدّق ومصدوم وحائر، وشرع يقرأ القرآن على نفس القراءة التي كان يقرأ بها في البيت، إلى أن أشرقت الشمس، ثم صلّى الضحى، وخرج إلى الطريق، يمشي بين الناس، بكلابيته البيضاء وطاقيته البيضاء، وبيده سبحة خشبية، يسلّم على كل من هبَّ ودبّ، يصافحهم مع الكثير من النصح والارشاد، وإذا مرّت بقربه **امرأة**، سلّم عليها وسأل الله لها الستر، ثم أمرها بالتزام بيتها، ومن رآه يدخّن، سحب منه السيجارة، وداس عليها، ناصحًا له بترك التدخين.. والأنكى من ذلك كله، أن بعض الناس قد رأوه بعد صلاة المغرب، وبيده سيجارة وعلبة دخان**!**

صلى كل الأوقات في المسجد، إلى أن اصطدم أثناء عودته إلى البيت، مع أحد زعران المنطقة، وما لبث أن تحوّل إلى ضرب

بالأيدي، وتراشق بالشتائم، إلى أن حجز بينهما بعض العقلاء، ولكن خالد ما يزال مرابطًا لأولئك الشباب.. وأغرب ما سمعته، أنه كان يقول للناس:

أن الله قد أرسله إليهم، ليُبعدهم عن طريق الشر والفجور، ويرشدهم إلى طريق النور!

الكثير منهم، لم يصدقوا ما يقول، لأنه **خالد!**

إلا أن القلة منهم شجعوه بدوافع مختلفة.. فصارت تنهال عليه دعوات الغداء والعشاء والسهرات، التي تبدأ بالوقار، وتنتهي بضحكات عالية من السخرية، على ذلك النبي الجديد!

طويلب علم

بعد كل تلك القصص التي سمعتها من أمه، تجمدت الكلمات على لساني، ما عدا سؤال واحد:

- أين هو الآن؟

قالت بحزن العاجز:

- والله ما بعرف يا أستاذ، ما بعرف!

خرجتُ لأبحث عنه.. فوجدته بعد عناء على الحالة التي وصفتها، كلّابيته التي صارت مزيجًا من البياض والسواد، والكثير من الجعلكات، يبدو أنه نام بها، ولكن أين؟ في المسجد؟ هل صدقه إمام المسجد أيضًا؟

أوقفتُ السيارة قربه، فتقدّم نحوي، مرحبًا، ولما أراد الصعود، سمع أذان العشاء، فقال بنبرة نبيّ:

- ما رأيك أن نذهب لنصلي معًا في المسجد؟

وتابع كلامه بنصيحة، وأحاديث طويلة، عن فضل الصلاة

وصلاة الجماعة، حتى لم يترك لي مجالًا إلا أن أتابعه..
تحاشيتُ التقرب منه أثناء سيرنا، وماطلتُ في وضوئي، إلى أن حان وقت إقامة الصلاة، فدخلت المصلى، وصليت بعيدًا عنه!
عند انتهاء الصلاة، سبقته إلى السيارة، منتظرًا لأكثر من نصف ساعة، عندما خرج اتجه صوبي، وصعد قائلًا:
- تقبّل الله، أستاذي العزيز..
- تقبّل الله، يا شيخ خالد!
قال لي، متواضعًا:
- أنا لست بشيخ، أنا طُويلب علم صغير!
- سمعت بأنك بدأت تنصح الناس، وتعطيهم المواعظ في المسجد..
- إنه واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويجب على كل إنسان مسلم، أن يُطبّق هذه الآية القرآنية..
- الله يهديك ويتمّم عليك، أنت بتستاهل كل الخير..
في الطريق.. كان يدور في بالي سؤال شرعي:
هل يُشترط لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، أن يُطبّق ما يقول؟ وهل تشترط الأهلية أم لا؟
سؤال لم أجرؤ على النطق به أمامه، خشية أن ينفر مني، وقد وعدت أمه أن أعيده لها اليوم..أما هو فكان يُحدثني عن الله والقرآن، إلى أن قال:
- الله يحبّني، صحيح؟
بعد جوابي بالتأكيد، صار يُنَهْنِهُ بصوت مبحوح، ولا أدري إن كان بسبب البكاء، أم بسبب الصراخ بعد تلك المشكلة التي وقعت له، قلت له:

- أمّك تنتظرك، يجب أن تزورها، وهذا من برّ الوالدين..
- نعم، أنا مقصر كثيرًا في حقها.. ثم أتبع كلامه بآية قرآنية:
"وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا"
عندما أنهى تلاوته، وأثناء طريقنا إلى بيته، كان قد أشعل سيجارة!

نبيٌّ نائم

هل ما زال يُحشّش؟
سؤال يشغل تفكيري، لم أسأله بشكل مباشر، فقال:
- الله يعفو عنّا، لا يجوز تذكر المعاصي!
فتوقّفت عن الكلام تمامًا.. كل ما يهمني الآن، أن أوصله إلى أمّه سالمًا.. التي شهقت مع وصوله لآخر درجة:
- شو هالمنظر.. ع الحمّام مباشرة!
اقترب منها، وقبّل يدها بكامل الأدب والاحترام، ثم توجّه إلى الحمّام..
في تلك المدة، أعدّت لنا أمه طعام العشاء، فطلبتُ منها أن تعطيه الدواء، فقالت:
- ما عم يقبل ياخد الدواء، قال هو ما بحاجة دوا، الله بيشفيه!
فاقترحت عليها بأن تضعه في القهوة أو الشاي، فوافقت..
بعد العشاء، وبفعل الدواء، تسلل النعاس إلى عينيه، مطفئًا معه كل حواسه!
أكدتُّ على أمه، بالاستمرار على الدواء، وفي حال رفضه، تتصل بالمركز ليتابع حالته الطبيب المختص..

فوضى المشاعر

في طريق عودتي، شاهدتُ زياداً ينزل بسيارته من ذات الطريق الذي أصعد فيه، مغلقًا عليه النوافذ، كأنه يستتر بدخان سجائره عن العالم!

انتظرته ريثما يعود، بعد أن غمزتُ له، فاستدار، ووقف بجانب سيارتي، دون أن ينزل. بدا سعيدًا جدًا، رغم الشجوب الذي يعلو ملامحه، سألته أين وصل، فقال:

- كل شيء على ما يرام، والسيارة نجحت في الفحص العام، وغدًا سيذهب إلى المحامي، مصطحبًا الرجل الذي اشتريناها منه، ليسجّلها باسمه..

- كل أوراقك جاهزة؟

- بالتأكيد، في الساعة التاسعة صباحًا، ستكون السيارة باسمي، وسأبدأ مباشرة بالعمل..

تمنّيتُ له الخير والتوفيق، ثم تركني لأعود إلى البيت، محمّلًا بكم هائل مما لا أُدركه..

مزيجٌ حائرٌ، من العادي، وغير العادي!

٢٢

باب الحريق

عقربٌ خائف

في صباح اليوم التالي، ذهبتُ إلى الجريدة، والسعادة تشرق من ملامحي، فكل من أقابله في الطريق كان يضحك، دخلتُ مكتبي، وكعادته، كان يُحضّر القهوة، مع الفيروزيات الصباحية الناعمة:

- صباح الخير يا صديقي..

- صباح الخير، أيها السعيد..

- أوه، هل أصبحت تقرأ الوجوه أيضًا؟

- وجهك لا يحتاج إلى قراءة، ما سر هذه السعادة؟

توقّف، أنا أعلم السبب، يبدو أن زياد، قد بدأ العمل على السيارة!

- على وشك أن يبدأ، إنه شعور لا يوصف، أن تكون سببًا في إدخال الأمل على حياة أحد ما..

- معك حق، وقد بدأت أتفهم سبب تعلّقك بزياد والآخرين..

كل ما في الأمر، أنني كنت أخشى أن يؤثروا عليك، فيتحول جحيمهم إلى حياتك.. وعلى ما يبدو، أن العكس قد حصل، وهذه نقطة تُحسب لك..

- إنه أمر متعب، إلا أن نتائجه مرضية تمامًا..

على حسب قوله، سينتهي كل شيء، في تمام الساعة التاسعة صباحًا..

عقارب الساعة تشير إلى الثامنة والنصف.. نصف ساعة، وتبدأ رحلة الصعود نحو الأمل والانفراج. جلست إلى مكتبي، أتصفح آخر الأخبار، وفي غمرة ذهوليَ السعيد، ناداني أنور مذعورًا:

- انظر!

أخذت الجريدة منه، لأرى الخبر المكتوبٌ بالخط العريض:

" في تمام الساعة الخامسة صباحًا، احتراق سيارة أمام المسجد..."

لم أستطع استيضاح الصورة المطبوعة بالأبيض والأسود، كما لم يُذكر شيء عن صاحب السيارة، أوعن سبب احتراقها، سوى بعض التخمينات: لم يكن بها أحد، وأن فريق الإطفاء قد تدخّل في اللحظة الأخيرة!

ازداد توتري، اتصلتُ بأمه، فلم تجب، انقضت ساعات الدوام، ثقيلة، متوترة، تجمدت معها أعصابي.. ذهبت إلى ذلك المكان، الذي احترقت معه سعادتي!

كان حديد المقود يظهر تمامًا، ناقل السرعة، أرضيَّتها، لأول مرة في حياتي، أرى جحيماً بهذا السواد!

ولكن.. أين زياد!؟

صمتُ الأنبياء

بحثتُ عنه قرب السيارة، ذهبتُ إلى بيته، قالت لي أمه، وفي عينيها دموع متعذرة عن الإفصاح:

- شفتها... احترقت!

- أين زياد؟

- مابعرف، فكرته عندك، مبارح رجع بالليل متأخر، يمكن شي الساعة أربعة الفجر، كان نايم، لما دقُّوا الجيران على الباب: عم يقولوا السيارة عم تحترق، فيقته، ونزل بسرعة، بس ما لحقها...

قلت لها مواسيًا:
- لا بأس، الله بيعوّض..
- من وقتا زياد ما رجع عالبيت..
- سأبحث عنه وأجده..
- ليش هيك هالصبي منحوس.. ما بعرف!
- متى آخر مرة تناول الدواء؟
- البارحة، أو يمكن قبل البارحة!
طمأنتها، ببعض الكلمات، ثم خرجت، نظرتُ إلى السيارة نظرة أخيرة، محملًا بكم هائل من اليأس..
لم أجده، فرجعت إلى بيتي، واتصلتُ بأم خالد، فكانت الأقدار تهيئ لي، مدخلًا آخر للتعاسة، قالت أمه:
- استيقظ اليوم على نفس تلك الحال، لبس الكلابية ذاتها قبل أن تجف، ونزل إلى الشارع، ولم يعد حتى الآن!
مع وضعي الحالي، لم أملك لها سوى كلمات من الاطمئنان، وأنني سأحاول تدبّر الأمر.. استلقيتُ على الكنبة، كمُحارب فقدَ سلاحه في منتصف المعركة، بانتظار القائد، كي يُعلن الانسحاب!
مربوط اليدين، أحاول أن ألملم شتات نفسي:
من أين أبدأ؟
كيف سأقنع زياد الآن بأن ينتظر الأمل؟
وكيف سأسلب من ذلك النبي البائس، نبوءته؟
أنا في أمسّ الحاجة الآن، إلى **معجزة**، على يد **نبي حقيقي!**

حلوياتٌ، على الأطلال

هل الباب يقرع؟
ركضتُ، بعد أن سمعت صوت زياد خلفه:
- ادخل..
ناولني العلبة، محشوٌ فمه ببعضها، ترتسم على محياه ابتسامة عريضة، كطفل يحاول إخفاء ذنبه بابتسامة، وببعض الحلويات!
قال مباشرة:
- رح قلّك خبر، يمكن يزعلك..!
تصنّعتُ الدهشة، فقالها بضحكة:
- احترقت السيارة!
كم تمنيت أن يخبرني بأن سيارته بخير، أو أي شيء يفيد بأن كل شيء على ما يرام، ولكنه كمن يُذكرني بأن ما رأيته، ليس حلمًا.. أجبته متصنعًا:
- كيف حصل ذلك؟ ألم نلتقِ البارحة، وأخبرتني أنك ستذهب اليوم لتسجيل السيارة باسمك؟
- فيقوني الجيران، قال سيارتك عم تحترق، ركضت عالطريق، كانت مليانة دخان، فتحت الباب حتى طالع الأوراق، قام صار الحريق أكبر، شلحت كنزتي، حاولت طفيها، بس ما في فايدة، احترقت أكتر، ولما اجت الاطفائية، كانت خالصة!
سألته مصدومًا:
- وما سبب الحريق؟
- والله ما بعرف، بس عالاغلب.. بدون ما انتبه نزل زرزور السيجارة على الفرش، وصار يعس، ولما شمت السيارة

شوية هوا بعد ما فتحت الباب، احترقت كلها!
- لا حول ولا قوة الا بالله!
- شايف النصيب؟
لم يكن حزينًا إطلاقًا، بل العكس، فتح الباب قائلًا:
- امشي نروح نشوفها...
وافقتُه، بعد أن شربنا القهوة، ودخنَّا سيجارة، على تمثال الأمل، الذي احترق أمام عيني قلبي!
ها هي أمامنا الآن.. خردة أسطورية، يتسابق الناس للتصوّر أمامها، وكأنها معلَم سياحي!
هممت في وضع لافتة مكتوب عليها بالخط العريض:
هنا تحوّل الأمل إلى رماد!
لكن زياد، سبقني إلى جملة، أكثر بلاغة، عندما كان ينفض يديه من **سواد الشحوار**، قائلًا:
الآن.. أصبحت الحياة مستحيلة!

نبوءة الرماد

تذكّرتُ وعدي لأم خالد، فاتفقت مع زياد، أن أوصله إلى المقهى، لينتظرني هناك.. بحثت عن خالد في المسجد، وفي الأحياء القريبة من بيته، لم يكن هناك أي أثر، وقد كان من المُحرج بالنسبة لي أن أسأل الناس عنه، ففي أحسن الحالات سينظرون إليّ نظرة ازدراء، وربما يشكّكون بأني من أوصله إلى تلك الحالة..
هل أنا من أوصله إلى هذه النتيجة..
وأثناء اعتقادي بأني أصلح حياته، أفسدتها..

تلك الفكرة مرعبة حدّ الحيرة.. فواسيت نفسي:
قد أكون أخطأت الوسيلة، ولكني فعلتُ ما بوسعي..
ذهبتُ إلى بيته، لأجد أمه في حالة يُرثى لها... بانهيار تام قالت:
- دخيلك يا أستاذ، ما بعرف شو صار مع خالد، صار يصرخ، ويعيّط، ويعمل مشاكل بالطريق، في حدا من الجيران اشتكى عليه، إجت سيارة إسعاف تابعة لمركز الإدمان، وأخدوه.. ما قدرت الحقهم، ولا بعرف شو رح يصير مع هالصبي!!
لم أكن قد أستيقظت من مصيبتي الأولى بعد، لأقع في واحدة أشد منها.. بأفكاري المشوشة، وقفتُ مثلها، مكتوف اليدين، أردّد ما قاله زياد: **أصبحت الحياة مستحيلة..**

ليس تمامًا

تركتُها هائمة في شقائها، ذاهبًا إلى شقائي الآخر..
الذي كان يراوح من مكان إلى آخر، كبركان يتحيّن لحظة انفجاره.. تماسكتُ، ومضيتُ نحوه:
- كيف حالك يا زياد؟
- بخير..
عاد إلى شروده، بينما جاء أبو غالب، ليجلس معي، قائلاً:
- معقول.. احترقت السيارة؟
- نعم، الأهم الآن هو خالد!
- وماذا به؟
- إنه موقوف في مركز الإدمان، بسبب شكاية الجيران عليه..
- كيف هيك؟ كانت حالته منيحة، شو اللي تغير!
بعد حديثي له عن خالد، **بدا متوجسًا..**

أحدّق به، أثناء محاولتي الاتصال بأصدقائي في المركز، لأطمئن على حالة خالد، فأخبروني، بأنه استسلم للمُهدئ، وقد يحتاج إلى البقاء في المركز لشهر أو أكثر.. لم أملك من الأمر شيء إلا التسليم، أغلقتُ الهاتف، واتصلتُ بأمه، قالت متلهفة:

- هل يمكنني زيارته؟

- بالتأكيد، وأعطيتها رقم صديقي، لتتصل به قبل أن تزوره..

أغلقتُ الهاتف، أمام حيرة أبو غالب، سألني:

- ما الأمر؟

- يبدو أنه يحتاج البقاء لأكثر من شهر، ليتسنى للمرشد النفسي متابعة حالته التي تدهورت بسبب الادمان، ولكي يتجاوز تلك الأزمة بهدوء، وبأقل معاناة له، ولمن حوله..

قال أحمد بصوت مرتجف:

- هل حالتي تستدعي ذلك؟

- ربما، إذا لم تستمر على ما اتفقنا عليه..

- أنا على وعدي، وأنا الآن أفضل بكثير، وقد التزمتُ بالأدوية الخاصة بي، وأزور المركز كل أسبوع مرتين..

كلامه كالثلج، ينزل ماحيًا آثارعبارة زياد:

نعم، في الحياة يوجد ما يستحق أن نعيشها..

وقد تصبح الحياة ممكنة مع الإصرار!

التفتُّ إلى زياد، الذي كان يحور ويدور، صامتًا، هائمًا، وكأنّه اقد شعر الآن بحجم مصيبته، اتجه نحوي، قائلاً:

- أنا رح روح عَ البيت..

وقفتُ لأوصله، فقال:

- ما في داعي، رح أمشي لحالي، البيت قريب.

لم تعجبني نبرة صوته، غمزتُ أبا غالب، فأشار لي بأنه قد وضع له الدواء مع الشاي قبل ساعة، فأراحني..
ودّعنا، مطأطئ الرأس، سريع الخطى، وكأنه على موعد مع أحد ما.

كوميديا سوداء

بعد أقل من ساعة..
ذهبتُ إلى البيت منهكًا، أتلمّس سريري في تلك العتمة، خشيتُ من الضوء، خشية من يعلم أنه إذا أشعله، سيتحوّل كل شيء إلى حقيقة.. أيقظني من توجسي، **صوت قرع للباب!**
كان زياد، شاحب الوجه، مقطّب الجبين، لم يتحدث بأي كلمة، مشى في الصالون صامتًا.
اعتدت عليه في مثل تلك الحالات: أن لا أتكلم، لا أنظر إليه، أتجاهله، حتى ينتهي، فيجلس، ليتحدث معي، وتبدأ حالته بالانفراج.. فذهبتُ إلى المطبخ، لأعدّ القهوة، ثم تمدّدت على الكنبة، أخذتُ سيجارة، وشربتُ القهوة، بانتظاره.
كانت من **أصعب الليالي** التي صحبته فيها..
مزيجٌ من التهريج، ونحيبٌ بما يشبه البكاء، ضحك هستيري..
تارةً يقلّد أمه، بصوتها وطريقة مشيها، وتارةً يقلّد أباه، واضعًا يديه وراء ظهره، ثم يضحك بجنون، ثم يجعل يديه على أذنيه، مفتوحة أصابعه، ويحركهما إلى الأمام والخلف مع لسانه المتأرجح الممدود، ثم يعضّ سبّابته من وسطها، يئن وينوح، ثم يضحك بجنون، وعندما أشاركه الضحك يشير إلي، واضعًا سبابته على فمه:

- هس، بلا صوت، لا تضحك، ولا تحكي معي لمدة عشر دقائق!

فأهز برأسي موافقًا، أعود إلى سيجارتي وقهوتي، ويعود إلى تهريجه..بعد ساعة توقّف كل شيء، صار يهمس وقد انبطح على ظهره: **ماتت الحياة، ماتت الحياة!**

لم أستطع مشاركته ألمه، وأنا الذي كنت على حافة البكاء، ليس على احتراق السيارة وحسب، بل على احتراق روحه أمامي، من غير أن أكون قادرًاعلى مساعدته!

أشرتُ له إلى الحمّام، فخلع ملابسه قبل أن يدخل..

هناك... سمعته يتحدث إلى أحد ما، يهينه، ويشتمه بصراخ مكتوم: **حل عن ربي، حِلّوا عني، اطلعوا من راسي!**

ثم يُردّد، متراجعًا، لأكثر من عشر مرات:

ما انتبهت شو قلت

ما انتبهت شو حكيت

ما انتبهت ليش حكيت

وما انتبهت ليش رديت لما حكيت!

تتسارع بعدها طشطشة الماء.. وكأنه في طقس من طقوس التطهير!

جسدٌ نائم، وإصبع يتذكّر

ماتت **الحياة**، أمام هذا الإنسان التائه، الذي ما زال يصارع الأمل، وفي كل مرة يصرعه الألم!

ما أقسى هذه **الحياة** التي تمرّ بها يا زياد..

تُصارع مرضك، تُصارع من يتهمك بالجنون، تصارع

وساوسك وهلوساتك، تقف أمامهم بثبات وتقاتل..
كيف سأقنعك الآن، بأن في الحياة ما يستحق الحياة؟

خرج من الحمّام مكفنًا بمنشفته، صامتًا، هادئًا..
شرب شفة من القهوة الباردة، ارتدى ملابسه، وغط في نوم عميق، بعد أن تناول سندويشة زعتر وضعتُ فيها دواءه..
تركته على الكنبة خائرًا تمامًا..
وأكثر ما لفت انتباهي: إبهام قدمه اليمنى، الذي كان متشنّجًا، مشدودًا إلى الخارج، وكأنه يرفض أن ينام!

٢٣

باب مغلق

مسامحة

في اليوم التالي، التقيتُ بأحمد، الذي كان مشغول البال على خالد، ثم، وبشكل عفوي، بدأ يحدثني عن طفولته، ومعاناته مع أبيه وجدّه، عن مدرسته، وأنه كان من المتفوقين، ثم عن رفاق السوء، وبعدها أكّد لي بأنه عازم على التغيّر الجذري، وسيحاول متابعة دراسته، والتطوّر في السلك الوظيفي، لكي يعيش حياة سليمة.. أثناء حديثه عن أهله، انتبهت لتلك النبرة الحزينة، فسألته، ناظرًا في عينيه:

- هل سامحتهم؟

أجاب مذعورًا:

- من؟ أهلي؟

- نعم، هل سامحتهم على ما فعلوه بك في طفولتك؟

- هدول أبي وأمي، على عيني وراسي..

- أحمد، لا أريد كلامًا اعتباطيًا عامًا، هل تشعر في قرارة نفسك، أنك سامحتهم؟

أو سأعيد السؤال بطريقة أخرى: **عندما تتذكّر ماضيك، وما فعلوه بك، هل تحزن؟ هل تشعر بالأسى على ما فعلوه بأحمد، ذلك الطفل البريء؟**

ظلّ سارحًا لدقائق، ثم سقطت دمعة لا أنساها ما حييت، والتي نطقت بها شفتاه:

- لا.. وسكت**!**

كان سؤالًا عفويًا، فلم أكن أتوقع أن الحقد الطفولي على الأبوين، يظل مدفونًا مع الإنسان، طوال حياته**!**

من إجابته الصارخة، تعلمتُ الدرس، فقلت له:
- ما رأيك أن تُسامحهم الآن؟
- أكيد، هدول أهلي، أبي وأمي، شلون ما بدي سامحهم!
قاطعته، مرشدًا:
- ليست تلك المسامحة التي أبحث عنها، هل بإمكانك أن تنظر في عيون أبيك، وتقول له: يا أبي، أنت فعلت بي كذا وكذا عندما كنتُ صغيرًا، لقد ظلمتني في كذا وكذا، وأنتِ يا أمي، وتسرد عليهما كل تلك التفاصيل، ثم تقول لهما: والآن، أنا أسامحكم على كل شيء، وسأبقى أحبّكم، رغم كل شيء.. هل تستطيع فعل ذلك يا أحمد؟
الدنيا تدور في أعماق عينيه، قال بلا تردد:
- لا أستطيع!
بعد لحظات صامتة، اقترحتُ بأن يحاول في خياله:
- اجلس بهدوء، في مكان بعيد عن الناس، وتخيّل نفسك أمام والديك، جرّب هذه الطريقة، لعلها تساعدك..
قال لي:
- سأجرّبها الآن..
- ليس الآن، يجب أن تكون لوحدك..
- هل هذه الطريقة تجعل شفائي أسرع؟
- التسامح مع من ظلمك ليس ضعفًا، بل تحررٌ من ماضٍ لم تكن مسؤولًا عنه، عندما كنت ضحية لا صانع قرارات.
إن لم تُسامح الآن، ستبقى مثقلًا بما لم ترتكبه: بين ندمٍ مفتعل، أو شعورٍ بالمظلومية، وكلاهما يعوقك عن التقدّم.
قال عازمًا:

- سأفعل ذلك!
- اتصل بي بعد أن تفعلها، سواء حقيقة أو بخيالك!

في المساء، أتاني اتصاله، وكأنه كان في حفلة بكاء:
- لقد تحدّثت مع أبي وأمي كما طلبت، وهم حولي الآن..
أشعر براحة كبيرة جدًا..
كما وإنهما يشكرانك، وينتظران زيارتك في أقرب فرصة، للتعرّف على من أعاد ولدهم إليهم!

أغلقت الهاتف، وأنا لا أعرف:
هل نجحتُ في تحريره..
أم فتحتُ بابًا آخر لا أعرف كيف يُغلق!

حلم

بعد أيام...
استيقظتُ على صوت مرعب، تداخلت فيه أحلامي مع صوت أذان الفجر:
كنتُ أركض في نفقٍ بلا نهاية، مظلم، مليء بالأبواب التي تفتح وتغلق، كأنها اختبارات متكررة.
كلما عبرتُ بابًا، وُلد بابٌ آخر، فأظل أركض وأرتطم، أبحث عن مخرج لا أجده..
من سقف هذا النفق يتدلّى حبلٌ غليظ، يعض عليه نمرغاضب..
ما إن تجاوزته، حتى انهارت تحتي حفرة سحيقة من الظلام، قفزتُ فوقها، لتنغرس قدامي في مستنقع يحرسه أسدان يزأران..وعلى الضفّة الأخرى، تدور ناعورة، تغمس صناديقها في ذلك المستنقع، لتُخرج منه ماءً ملوّنًا: أسودًا، أحمرًا، أخضرًا، أصفرًا.
أسمع مع دورانها أصوات ارتطام مرعبة، وكأنها حوادث مرورية أومكائن لكبس المعادن، فيتردد صدى متكرر:
أحرق.... معبدك..
سمِّد.... معبدك...
إنها النار.. إنها النجاة..
ما انبهت رديت..
ما انتبهت مرة تانية..
ليش ما انتبهت..
عادي .. عادي .. عادي
على تلك الأصوات استيقظت، تعوذت بالله، ثم توضأتُ لأصلي

الفجر، أفكّر في ذات الحلم، استغفرت كثيرًا، ثم نهضتُ، متوجهًا إلى مبنى الجريدة، لأجد الحارس على الباب، سلَّم عليّ من بعيد، قائلاً:

- ما الذي أتى بك؟ هل نسيت شيئًا في المكتب؟

أجبته متردّدًا:

- لا، لم أنسَ شيئًا، ولكن يبدو أنني أتيت باكرًا..

نظرتُ إلى ساعتي، لأتأكّد من الوقت، كانت الساعة تشير إلى الثامنة إلا ربع، اتجهتُ صوب الحارس:

- سأصعد، وأنتظر باقي الموظفين..

ضحك الحارس، قائلاً:

- اليوم هو الجمعة!

صفعتُ رأسي متفاجئًا: **معقول؟**

انسحبتُ من المكان بهدوء، أُعدّ خطواتي، كانت المرة الأولى في حياتي التي أُخطئ في العد..

استراحة محارب

أمشي باتجاه منزلي من الأزقّة الضيقة، فأسمع من بعيد ضجيج الباعة وأصحاب البسطات، أحاول تجاهل نداءاتهم، أفكر في ذات الحلم!

دخلتُ باب البيت، فتذكّرتُ زياد، وخالد، وأحمد، وكأنهم هناك، ينتظرون عودتي، جلستُ على الأريكة، أُراجع ما حصل خلال آخر أيامي.. لقد حصل فيها كل شيء تقريبًا، السؤال الحقيقي:

ما الذي لم يحصل؟

انطلقتُ إلى بيت عائلتي، ومن بعدها إلى المسجد لأصلي

الجمعة، يتردّد في خيالي ذلك الحلم، أحاول تفكيك رموزه، لم يكن لديّ فكرة واضحة عن كيفية تكوّن الأحلام، رغم كل النظريات الفرويديّة التي قرأت عنها..
بعد الغداء، استسلمتُ لكسلي، ونمتُ نومًا عميقًا، لم أستيقظ منه إلا عندما أوشكت الشمس على المغيب!
شربت قهوتي على مضض، وقبل أن أذهب اتصلت بأم زياد سألتها عنه فأجابت:
- لم يأتِ إلى المنزل منذ ثلاثة أيام، ظننته معك!
أخبرتها بأنني لم أره منذ مدة، فصارت تردّد مطمئنة:
- لا تقلق، بيكون نايم هون ولا هون، زياد عنده هيك غيبات.
شعرتُ بالقلق لغيابه، إلا أنني كنتُ أهرب من التفكير..
الفراغ يحاصرني، بعد أن اتصلت بأنور ولم أجده.. لم يكن لي خيار إلا الجلوس مع عائلتي.. أختي الصغيرة ترسم بعض اللوحات، فتسألني عن رأيي، أجبتها باختصار: إنها جميلة يا فنانة العائلة.. تساءلت مع نفسي: من أنا بين كل تلك الركامات التي خلفتها.. يقتلني سؤال واحد:
هل حقًا أنا الذي تسببت بكل تلك الفوضى، أم أنها كانت ستكون معي أو بدوني.. ولكن من الذي اشترى السيارة لزياد، ومن الذي دفع خالد بتلك الأفكار، كنت أحسب أنني أعطيه شجرة ليطفو عليها وينجو، لم أكن أعلم حينها أنني أعطيه سببًا آخر ليحترق ويحرق قلب أمه عليه.. وهل سيبقى أبو غالب على وعده إن تركته الآن؟ أعتقد أنه سيرجع أقوى من السابق، كيف لا، وقد أعطيته الشيفرة السرية لفهم نفسه وشخصياته المبتكرة.. لقد فتحت له أبواباً أخرى للرياسة، صانعًا منه الباشا الجديد!

عن ماذا كنت أبحث من خلالهم، وما الذي جنيته إلا الحرائق التي تحاصرني من كل اتجاه.. كادت دمعة تسقط، لولا أني تداركتها بفكرة خاطفة:
هذه المرة لن أفعل أي شيء، سأجلس بانتظار أن يُغلق كل شيء من تلقاء نفسه!

نظرت إلى تلك الناعورة التي رسمتها أختي، لقد اشتقت إلى عنينها، لعله يخفف عني ثقل ما أجده في صدري..
فانطلقت بسيارتي، إلى التي كانت الشريكة الصامتة على مجريات قصتي.. هناك حيث صرخ خالد: أنا أحبك يا الله .. والتقيت بعدها بأبي غالب.. وكانت شاهدة على لقائي بزياد ودخوله بوابة قدري!
ها أنا أقف أمامها اليوم وحدي، تدور بعنفوانها غير آبهة بأفكاري المتضاربة..
حاولت الانصات إلى ما تقوله الناعورة، لعلي أخرج بحكمة أو درس جديد..
فأخبرتني: بأن كل شيء سيعود كدوران صنادقيها، فيسمع عقلي جوابها فينادي: تخفف من حمولتك!، ويسمعها قلبي فيقول: اغترف أكثر..
ثم تذكرت ذلك الحلم وتلك الأصوات المرعبة.. التي تختلط الآن بأصوات الناعورة الرخيمة!
أين أنت يا زياد، لطالما التقيت بك على حافة شيء ما..
هل سقطت إلى الهاوية.. بعد أن أعطيتك جرعة زائدة من الأمل، فسقطت متعثرًا بفرحتك!
أجلس في نفس المكان الذي وجدتك فيه، شيئًا فشيئًا أتمدد مثلك

على هذه الحافة الحجرية، قطرات الماء تهطل على وجهي وملابسي، فأتركها دون تجفيف، فلا أريد لشيء أن يكسر قدسية تلك اللحظة.. وكأني كنت في حالة استجداء، أو في طقس من طقوس التطهير الروحي!

بقيت نصف ساعة وأنا أنتظر.. ثم شعرت بازدحام الناس حولي أفقت مذعورًا، وعندما لم أعرف أحدًا منهم..ارتحت!

مشيت باتجاه سيارتي، أدور بها حول القلعة، ثم صعدت إلى بدايتها حيث ركنتها هناك، وأكملت سيري باحثًا عن زياد، أو ربما كنت أبحث عن نفسي!

قدماي تقودني إلى تلك الكراسي الحديدية البيضاء، جلست، أتفقد الأوراق التي أحرقها أبو غالب قبل مدة.. هل ما زال الشيطان يتربص بي، لأني ألصقت به ما ليس من فعله!

أم إنه يسخر مني، لأني أقنعت أبا غالب بتلك الوصفة الوهمية.. أتراه يعاقبني على كذبي، ويبث في روحي هذه الكآبة المخيفة!

ولكن لا..

فأبو غالب وضعه الحالي أفضل من ذي قبل..

سأسخر من الشيطان أيضًا..

أخرجتُ بضع أوراق من جيبي وبدأت الكتابة:

زياد

خالد

أحمد

كتبت كل اسم ثلاث مرات، ثم أمسكتها متأملًا، وقد جودت خطي أحسن تجويد.. وأخرجت قداحة كنت قد اشتريتها في طريقي مع علبة دخان مالبورو.. وبدأت أقرأ بصوت مرتفع:

سأنقذ نفسي من أقداركم..

محاولًا الشعور بتلك الراحة التي شعر بها أبو غالب لم يكن ذلك كافيًا.. فأشعلت سيجارة، وأمسكت بورقة أخرى، أعدت الكرَّة ثلاث مرات، وفي كل مرة كان يخف تأثير تلك الراحة المصطنعة. فازدادت كآبتي..

رجعت إلى السيارة، بعد أن مشيت قليلًا داخل القلعة، لعلي ألمح زياد ممدًا على إحدى الكراسي، ولكن دون جدوى!

عندما وصلت إلى السيارة، وضعت علبة الدخان والقداحة في تابلوه السيارة، وقبل أن أغلقه، وقع نظري على تلك الكرة المعجونة تساءلت ما هي؟

أمسكتها، شممتها، فتذكرت مرتعبًا!

كنتُ أعتقد بأني رميتها، الحمد لله أن لم يرها أحد!

دسستها في جيبي مسرعًا إلى بيتي.. وأنا عازمٌ على إتلافها في البالوعة، ولكن لا أدري ما سبب تلك الرغبة العارمة التي بدأت معها بصنع صاروخي الأول، شممته غير متردد لتلك التجربة!

الباب مقفل، ولا أحد سيأتي، وغدًا عطلة، مهما حصل، فلا بد أن ينتهي مع طلوع النهار..

خلال دقائق كانت السيجارة مشتعلة في فمي، شعرت ببعض الدوار، فظننت أن الأمر سيتوقف هنا، فقلت: لابأس..

لحظات.. وانجرفت بعدها إلى دوامة من الأفكار المرعبة!

وكأني مثبت على واجهة طائرة، تحلق مسرعة، لاعجب أن يسميها الناس صاروخًا.. تلسعني الأفكار من كل صوب، ذكريات لا أدري أين تبدأ وأين تنتهي!

لم أستطع التحرك إطلاقًا، ثم شعرت بألم شديد في بطني،

فاستلقيت على ظهري، فازداد الدوار، فانقلبت على بطني، والسيجارة تمخر دخانها غير بعيدة عني.. أكملت السحبة الرابعة وتوقفت بعدها تمامًا!

انقطع كل شيء في داخلي، متحولًا إلى سواد حالك.. حاولت أن أمسك عقلي، الذي كان على وشك الوقوع من تلك الطائرة، فلم أفلح!

أحاول التماسك، لأقوم من مكاني، ولاأقدر!

رفعت ساقي، واسندت ركبتي على الأرض، ثم على يدي شيئًا فشيئًا، استطعت الوقوف أخيرًا..

وما لبثت أن سقطت على الأرض، فجررت جسدي، لأصل إلى الحمام، وقفت تحت الدوش بملابسي، منتعشًا مع خيالاتي المبللة..

استندت على الحائط عندما خرجت، نظرت إلى تلك السيجارة النائمة في المنفضدة.. أشعتلها، وأخذت نفسًا طويلًا، ثم زفرته بهدوءٍ، بعد أن أطبقت شفتاي بشكل دائري، فازداد الدوار!

تذكرت حينها خلطة اللبن والثوم ، لا أدري إن كان لدي، حاولت القيام إلى البراد لأنظر، فلم استطع.. فتخيلت أن لدي لبن وثوم، فاسترحت!

بعد قليل نهضت مختبرًا قوتي، اتجهت نحو الحمام لأتبول..

نظرت في المرآة المعلقة هناك، كان وجهي قد تحول لونه إلى الأصفر وعيناي قد ذبلت، يتخلل صفرتها عروقٌ حمراء..

تذكرت أبا غالب، هل اعتقد نفسه النبي يوسف لأن وجهه قد تحول الى الأصفر وحسب.. إلى أي نبي سأتحول أنا إذن..

سأكون النبي سليمان، تحولت تلك الضحكات مع نفسي إلى

قهقات عالية، وكلمات قدسية: **تعالوا أيها الجن، أعينوني على ما أنا فيه، أحضروا سيارة فاخرة لزياد وزوجة جميلة.. وأعيدوا خالد لأمه، أريد أن أجعله من اتباعي المخلصين .. وأيضًا، ساعدوا أحمد في التخلص من جده، ليعيش حياته بسلام..**

ضحكت، ولا أدري إن كنت بعدها قد بكيت!

سحبت نفسًا آخر من تلك السيجارة التي شارفت على الانتهاء، واستلقيت على الكنبة، وقد بدأ الدوار يهدأ شيئًا قليلًا..

كانت الطاولة قريبة جدا من الكنبة، فأزحتها بقدمي، فوقعت بعض الأوراق، وربما وقعت المنفضدة.. لا بأس لا يوجد ما يهم!

حاولت النوم، فلم أستطع.. يأخذني الدوار بعيدًا جدًا عن غرفتي.. إلى القلعة، حيث كنت أركض حولها لأكثر من مرة، ثم رحلت إلى صديق طفولتي، ذلك الصديق الذي تدربت معه على الخوض في عقول الناس، قبل أن أمارس مهنة الصحافة ثم وجدتُ نفسي فوق القلعة وحيدًا، على تلك الكراسي البيضاء، والأوراق التي أحرقتها في رمادها، وكأنها تلبسه خشية على نفسها من الانطفاء..

أمسكت ببعضها، أشم الرماد والحريق، كانت الرائحة قوية وكأنها حقيقية.. فتحت نصف عيني اليسرى، التي قبل أن أغلقها، كنت أرى بها الغرفة مغلفة بالسواد.. فلماذا أراها الآن مشوبة باللون البرتقالي، أرجعت السبب إلى تلك العروق الحمراء.. فأغلقت عيناي، متنفسًا رائحة الأوراق مرة أخرى.. الرائحة تشتد، ولون الغرفة يتحول إلى البرتقالي المتأرجح ..

فتحت عيني، بعد أن لسعتني حرقة في يدي.. ما الذي يحترق؟
حاولت النهوض فلم أستطع، فمكثت في مكاني سارحًا..
أسمع طرقًا على الباب، فلم أستجب، وقد عزمت على البقاء وحيدًا.. سمعت صوتًا أعرفه: إنه أنور..
حاولت الصراخ: أنور... أنور!
لم يسعفني صوتي، وقد بدا اللون البرتقالي يشتد أكثر فأكثر..
هل ما أراه حقيقي!
صراخ أنور يزداد..
بقيت في مكاني، مستسلمًا لضعفي، بانتظار الصباح..
ثم تخيلت نفسي في غرفتي، على طاولتي، أكتب ملاحظاتي عنهم، في آخر صفحة من الدفترالأسود، كتبت:
ما ذنبي..
إن كان الله قد خلقني مدخلاً واحدا لأبواب متفرقة!

مع تلك الفكرة كان صوت أنور يختفي شيئًا فشيئًا..

لقد رحل أخيرًا بعد أن فقد الأمل ..

الآن أستطيع النوم بسلام..

أغضمت عيناي..

واستسلمت!

٢٤

بابٌ لا يُفتح!

This Copyright and Printing Rights Agreement is entered into as of (2025/11/25) by and between the Sumerian Scriptum Synthesis Publisher (SSSP) and (الأستاذ أمجد النجار), located at Diyala, 32001, Iraq.

1. Copyright Ownership:

1.1 The publisher house acknowledges and agrees that all copyright and other intellectual property rights in and to the work(s) described in this Agreement are and shall remain the sole and exclusive property of the publisher house, unless otherwise agreed upon in writing.

1.2 The publisher house shall have the right to use the work solely for the purposes set forth in this agreement and shall not have any right to reproduce, distribute, or otherwise exploit the work without the prior written consent of the author, except as expressly provided herein.

1.3 Regarding the International Standard Book Number (ISBN), the publisher house obtains it from the Iraqi Publishers Union, which has become the official ISBN agency in Iraq. The ISBN issued by this agency includes 9922 as a key component.

1.4 The publisher house will assign a Digital Object Identifier (DOI) associated with the publisher's prefix

(https://doi.org/10.62909/xxxxx) to each version and publish the complete book, including all pages, on the publisher's website.

1.5 For the translated version, the author must obtain permission from the original publisher first and then submit it to us officially.

2. Printing Rights:

2.1 The publisher house hereby grants to the printer the non-exclusive right and licence to print and reproduce the work in accordance with the specifications provided by the publisher house.

2.2 The printer agrees to print the work in accordance with industry standards and specifications provided by the publisher house and to deliver the printed copies to the publisher within the agreed-upon timeframe.

3. Payment:

3.1 The publisher house agrees to pay the printer the agreed-upon fees for printing services rendered under this agreement, as set forth in Exhibit A attached hereto.

3.2 Payment shall be made within 30 days of the invoice date.

4. Term and Termination:

4.1 This Agreement shall commence on the effective date set forth above and shall continue until the completion of the printing services, unless earlier terminated in accordance with this Agreement.

4.2 Either party may terminate this agreement upon written notice to the other party if the other party materially breaches any provision of this agreement and fails to cure such breach within 30 days after receiving written notice thereof.

5. Miscellaneous:

5.1 This Agreement constitutes the entire agreement between the parties with respect to the subject matter hereof and supersedes all prior and contemporaneous agreements and understandings, whether written or oral, relating to such subject matter.

5.2 This agreement shall be governed by and construed in accordance with the laws of Iraqi jurisdiction, without giving effect to any choice of law or conflict of law provisions.

IN WITNESS WHEREOF, the parties hereto have executed this Agreement as of the date first above written.

The Sumerian Scriptum Synthesis Publisher (SSSP)

الأستاذ أمجد النجار

رحلة نفسية واجتماعية عبر الراوي "فريد"، الذي يحاول إنقاذ ثلاثة أصدقاء محطَّمين وسط أحياء مدينة حماة، حيث تتقاطع أسئلته عن الرحمة والشفاء مع صراعاتهم الداخلية.

لا تُقدَّم الاضطرابات كأمراض، بل كرموز حيّة تتجسد في تفاصيل يومية: سيجارة محروقة، ناعورة لا تتوقف، سبحة تخفي رعشة اليد.

الفصول المتقافزة تكشف علاقات متشابكة بين الإنقاذ والخيانة، الضّحك والانهيار، لتترك النهاية المأساوية سؤالًا مفتوحًا: هل كان بالإمكان إنقاذه؟